مدلول الاعتناق الحقيقي للإسلام

("ها قد وجدتُ الإسلام، فماذا أنا فاعل؟")

تأليف

دكتور: لورانس براون

ترجمة:

مجموعة الأندلس للترجمة الإسلامية

Al-Andalus Group LTD

www.alandalusgroup.co.uk

حقوق النشر

حقوق النشر © 2004، 2006، 2007 لورانس بي براون.

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو بثه بأي شكل أو وسيلة إلكترونية أو آلية، ويشمل ذلك: التصوير، التسجيل الصوتي، استخدام الإنترنت، أو أيًّا من نُظُم تخزين واسترجاع المعلومات من دون الحصول على إذن مكتوب من المؤلف، ويستثنى من ذلك الحالات الموضَّحة أدناه؛ **فهي مصرح بها**.

إعادة الطباعة

إن إعادة طباعة أو إنتاج أو بث هذا الكتاب بأي وسلة كانت؛ إلكترونية أم آلية، بما في ذلك النُّسخ المُصوَّرة، أو التسجيل، أو استخدام الإنترنت (من خلال بريد إلكتروني أو موقع إلكتروني)، أو باستخدام أي من نظم تخزين واسترجاع المعلومات، كل ذلك **مصرح به** مجانًا **بشرط عدم إجراء أي تغيير أو إضافة أو حذف على محتوى الكتاب، وبشرط إيراد الأغلفة مشتملة على عنوان الكتاب، واسم المؤلف، والتنبيه الخاص بحقوق النشر بنفس الصيغة الواردة في النسخة الأصلية، وكذلك البريد الإلكتروني للمؤلف**، ومن أجل ضمان دقة إعادة الإنتاج، يُرجَى التواصل مع المؤلف بشأن الحصول على نسخة إلكترونية مجانية لملفات طباعة الكتاب (انظر الموقع الإلكتروني).

الترجمة

يُصرح بترجمة الكتاب إلى أي لغة تصريحًا مجانيًّا بموجب الشروط الآتية:

1. عدم تعرض محتوى الكتاب لأي تغيير أو إضافة أو حذف.

2. اشتمال الأغلفة على **العنوان، واسم المؤلف، والتنبيه الخاص بحقوق النشر، وتعليمات إعادة الطباعة**، وإيراد **الموقع الإلكتروني للمؤلف** بالصيغة ذاتها الواردة في النسخة الأصلية للكتاب.

3. إتاحة الانتفاع العام بالنسخة المترجمة كما هي الحال بالنسبة إلى النسخة الأصلية.

4. إرسال نسخة إلكترونية مترجمة إلى المؤلف (د. لورانس بي براون) لإدراجها بموقعه على الإنترنت.

الموقع الإلكتروني

الموقع الإلكتروني لمؤلف الكتاب: WWW.LEVELTRUTH.COM

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو رابع أربعة تتألف منها هذه السلسة؛ أولها (*The Eight Scroll*) وهو رواية تاريخية خيالية تقوم على عنصر المغامرة والحركة، وتستهدف تشويق القارئ، ومحاولة تقديم موضوع مقارنة الأديان للقارئ في صورة ميسرة. أما الكتاب الثاني في هذه السلسلة: (*The First and Final Commandment*)، فقد أعيدت كتابته، ومن ثم قُسم إلى مجلدين: (*MisGod'ed*)، و(*God'ed*)، وبعد نشر هذين المجلدين -وهما الكتابان الثاني والثالث في هذه السلسلة- صار كتاب (*The First and Final Commandment*) مجرد زيادة لا فائدة لها؛ ولكنه لا يزال مطروحًا بالأسواق لمن أراد الاطلاع على مجلد واحد كبير لا اثنين منفصلين؛ أما كتاب (*MisGod'ed*) فيرسم خارطة طريق للهداية والضلال في الأديان الإبراهيمية، ويَعرِض لاتصال الوحي بداية من اليهودية مرورًا بالنصرانية وانتهاءً إلى الإسلام، وعلى الجانب الآخر، يجمع كتاب (*God'ed*) شتات ما لم يَرِد في (*MisGod'ed*)، وهو يناقش قضية الإسلام من حيث كونه الدين الذي اكتمل به الوحي.

ويُتمِّم هذا الكتاب (*Bearing True Witness*) تلك السلسلة بتقديم الدليل العملي لمعتنقي دين الإسلام، وهناك كتاب خامس في طور الإعداد أنوي فيه الرد على تلك الانتقادات الماكرة والافتراءات السافرة التي تُكَال ضد المسلمين والإسلام؛ بينما أنوي في هذا الكتاب مناقشة قضايا: تعدد الزوجات، والعبودية، والعنصرية، وحجاب المرأة، وقمع المرأة، والإرهاب، و"الأصولية"، والشرك ...، وموضوعات أُخَر.

ويقصد بالترتيب الذي جاءت عليه هذه السلسلة توجيه قارئ ذاك المحتوى الخيالي نحو بحث جاد في أدلة الدين (*The Eight Scroll*)، من أجل تحليل هذه الأدلة (*MisGod'ed*)، والدفاع عن قضية الإسلام باعتباره الوحي الخاتم والمحقق لنبوءات كتب اليهودية والنصرانية (*God'ed*)، واقتراح الطريقة التي ينبغي أن يطبق بها الإسلام عمليًّا (*Bearing True Witness*)، بالإضافة إلى تزويد المسلم الحق بما يحتاجه لدحض الافتراءات الشائعة ضد الإسلام (في خامس كُتُب هذه السلسلة المزمع إصداره).

وبالنظر في الكتاب الذي بين أيدينا، فكثير ما يلاحظ المسلمون أن أولئك الذين يعتنقون الإسلام يمرون بعدة مراحل من التطور العقدي، والروحي، والنفسي قبل بلوغ مرحلة ما يشبه النضج الديني، وتتفاوت تلك المدة من فرد إلى آخر، تمامًا كما يتفاوت مدى النضج الذي ينتهي إليه كل منهم، فمنهم من يُظهر نضجًا دينيًّا ملحوظًا منذ مرحلة الطفولة، ومنهم من ينتهي به المطاف بانتكاسة عقدية عنيفة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك عدول الغزالي (وهو أبو حامد محمد الغزالي إمام القرن الحادي عشر الشهير) عن الصوفية المتطرفة في آخر حياته، وكذلك تفنيد الأشعري (وهو أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري) إمام القرن العاشر لأخطائه العقدية في أواخر أيامه، ولعل من أشهر الأمثلة على ذلك أيضًا في زماننا الحديث تحوُّل مالكوم إكس (Malcolm X) من المذهب العنصري -الذي يواجه انتقادات عقدية، ويُعرَف **بحركة أمة الإسلام**- إلى الإسلام الحنيف (مذهب أهل السنة والجماعة).

في البداية غالبًا ما يتجه حديثو العهد بالإسلام نحو الانخراط في مسارات عقدية واسعة التشعُّب في تلك المنطقة الرمادية التي تمتد عبر الفجوة ما بين نور الحق الأبلج وظلام الضلال اللجلج، وبينما يستقر كثير منهم في النهاية على طريق الصواب، فإن نَفَرًا غير قليل يظلون على درجة من درجات الضلال، تكون أحيانًا على ذلك القدر اليسير الذي لا يستوجب سوى بذل النصيحة، وقد تصل إلى الحد الذي يستوجِب العقاب بحسب ما تقتضيه الشريعة (الإسلامية)، وكثيرًا ما تبلغ ذلك الحد الذي يؤدي إلى انتقاض الإيمان بالكُلِّيَّة؛ ما يعني أن هذا العبد المَعنِيَّ -علم ذلك أم لم يعلم- قد بطَل انتسابه إلى الدين وخرج من مِلَّة الإسلام.

وتكمن أهمية السير على جَادَّة الحق على المستوى الفردي في أنها تعني النجاة للعبد؛ أما على مستوى المجتمع، فترتبط أهمية ذلك بإيضاح ضلالات المنحرفين الذين يشوِّهون الإسلام.

لقد عاش مؤلف هذا الكتاب -باعتباره رجلًا غربيًّا حديث عهد بالدين الإسلامي- وفق مذهب اللذة الطائش الذي يصاحب غياب الدين، ثم مر بمرحلة يقظة الوعي الروحي في قلب الساعي إلى الحق، ثم البحث الحثيث عن الحق، ثم الغربلة المتفحصة للأديان لتحقيق معيارَيْ الصدق والاتساق، ثم الاطمئنان إلى الاستمساك بالحق حين العثور عليه، وما يتخلل ذلك من أوقات يسر وعسر تتناوب على مدار أيام تلك الرحلة، ولقد أنتج عيشه -وعمله كمسلم- في كل من أمريكا وإنجلترا الغربيتين، ثم في رحاب المدينة الطاهرة -المدينة المنورة- تجربةً عميقة قد تفيد أولئك الساعين على ذات الدرب.

غير أني لست بصدد تقديم كتاب لعرض الذكريات؛ وإنما كتاب تحليل، فالحقيقة أن القضايا المطروحة قد تطرَّق إليها علماء الإسلام منذ البعثة، وأن سبيل الرشاد في كل هذه القضايا محددة منذ عصر النبي الخاتم محمد ﷺ؛ ومع هذا، تؤدي ندرة المعلومات المتاحة باللغة الإنجليزية إلى تزييف الحقائق أمام كثير من حديثي العهد بالإسلام من الغرب، ومن ثم سهولة تضليلهم. وتمثل المعلومات الواردة في الكتاب أقصى جهد توصل إليه الكاتب من أجل تصحيح هذا الوضع المؤسف.

1) الالتزام

قد وقع الاختيار إذن، ودخل الشخص دين الإسلام وصار مسلمًا بعد التلفظ **بالشهادتين**، ونصُّ هذه الشهادة: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله"، ومعناها: "أشهد أنه لا إله (ومعناها "لا معبود بحق") إلا الله، وأشهد أن محمدًا ﷺ رسول الله".

ومن المعهود أن يُجهَر **بالشهادتين** على رؤوس الأشهاد، إذ يتعين على الداخلين في دين الإسلام بوجه عام إعلان دخولهم إلى الإسلام، ومع هذا، فقد يُسَرُّ **بالشهادتين** إن لزم الأمر، ولا يكون ثمة شاهد عليها إلا الخالق وحده.

وتلك الشهادة ليست بوحدانية الله وبنبوة محمد بن عبد الله ﷺ فحسب، فهي، إضافة إلى ذلك، تُلزِم المؤمن بكل ما أمر به الدين، وتنهاه عن كل ما نهى عنه، فعلى الرغم من أن لفظ الشهادة لم يصرِّح بتحريم الفواحش، والزنا، والخمر، وما إلى ذلك، فإن الانصراف عن هذه المحرَّمات مقترن **بالشهادة**؛ هذا لأن الإيمان بمحمد ﷺ نبيًّا -وبطبيعة الحال نبيًّا خاتمًا- يوجب قبول الرسالة والشريعة التي أتى بها؛ أما ما دون ذلك فهو نفاق.

إذن، أول ما يجب على حديث العهد بالإسلام الاستيعاب التام لمعنى **الشهادة**، والشروع في العيش بمقتضاها[1]، وهناك العديد من الكتب المُعتبَرة التي كُتبَت في هذا الصدد، ولن يكون ثمة فائدة تذكر في تكرار ما ورد بالأعمال السابقة؛ بيد أن الأمر قد يستلزم ذكر نُبذة موجزة، بادئ ذي بدء، نقول: إن أهم وآكد ما يجب أن يلتزم به العبد عند إعلان **الشهادة** هو إدراك معنى **التوحيد** (أي وحدانية الله)، وهو ما لا يحتاج إلى كثير تأكيد؛ فالإسلام دين **التوحيد**، وأي إخلال في معنى التوحيد الإسلامي وتفرُّد الله ووحدانيته المطلقة يقود إلى **الشرك**، ويتفاوت **الشرك** في درجاته؛ بدءًا **بالشرك** الأكبر الذي يُخرِج العبد من ملة الإسلام إلى **الشرك** الأصغر الذي يُعَد ذنبًا، إلى **الرياء** أو **الشرك** الخفي؛ أما أمثلة **الشرك** الأكبر فتتمثل في إفراد غير الله بالعبودية أو إشراك غير الله فيها، ومن أمثلة **الشرك** الأصغر الحلف بغير الله أو الإيمان "بتمائم" الحظ، وأخيرًا، من أمثلة **الشرك** الخفي تجويد العبد صلاته إذا شعر أن هناك من يراقبه، أو مبالغة العبد في التصدق إذا علم أن العطاء مُعلَن، ونظرًا للأهمية البالغة للموضوعات المتعلقة **بالتوحيد** و**الشرك**، فإننا ننصح بشدة بدراستها من خلال الكتب التي تتناول هذه الموضوعات بالشرح المستفيض[2].

ويقترن **بالتوحيد** الإقرارُ بأن محمدًا ﷺ هو النبي الخاتم ورسول الإسلام، وهو إقرار من الأهمية بمكان؛ فهناك العديد من كذبة التبشيريين قد ادعوا النبوة على مر الزمان، وقد انحرفوا بجموع غفيرة إلى طُرُق الضلال، ويُعَد إليجاه بول محمد (Elijah Poole Muhammad) مؤسس حركة أمة الإسلام، مثالًا على ذلك، وممن سار على دربه من الضالين المضلين ميرزا غلام أحمد (Mirza Ghulam Ahmad) مؤسس الجماعة الأحمدية (وتُعرَف كذلك بالقاديانية)، وكل من الباب ميرزا علي محمد (Bab Mirza Ali Muhammad)، وميرزا حسين علي (Mirza Husain Ali) (مؤسسي البهائية)، ومعهم جمع غفير من التبشيريين المتلونين غريبي الأطوار الذين طفوا على السطح وكان لهم أثر فاعل على مدار الـ 1400 عام الماضية.

---

[1] قال العلماء: إن **الشهادة** لا تصح بدون سبعة شروط: العلم، والإخلاص، والصدق، ومحبة **الشهادة**، واليقين، والتخلي عن كل ما ينافي **الشهادة**، والعمل بمقتضاها، (أو بعبارة أخرى، التحلي بمظهر الإيمان).

[2] ومثل هذه الكتب متوفرة من خلال العديد من المكتبات الإسلامية الإلكترونية.

إن التسليم بأن محمدًا ﷺ نبي الله الخاتم لا يبقي سبيلًا أمام العقل للتفكر في تلك المزاعم التي يأتي بها أولئك المدَّعون، علاوة على ذلك فإن اختتام سلسلة النبوة بشخص محمد بن عبد الله ﷺ تتسق مع ما جاءت به الكتب السماوية السالفة (ولمزيد من التوضيح، يُنصَح القارئ بمراجعة كتاب (*God'ed*)، وهو الكتاب الثالث ضمن هذه السلسلة).

وأخيرًا، فإن الجهر **بالشهادتين يعني ضمنيًّا** الإيمان بأساسيات الدين الإسلامي (التي تُعرَف بـ"أركان الإسلام"؛ لأنه إذا غابت تلك الأركان المتعلقة بالاعتقاد والعمل انهدم الالتزام بالدين)، وتتوفر العديد من الكتب التي تعرِّف بأركان العقيدة والتطبيق العملي للدين من خلال المكتبات الإسلامية، وتتنوع ما بين الكتيبات الصغرى والمجلدات الضخمة ذات المحتوى المجمل والمتخصص، ونقول بإيجاز: إن الأركان الأساسية للإيمان ستة: الإيمان بالله، والملائكة، والكُتُب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر، كما أن أركان الإسلام خمس: النطق **بالشهادة** عند الدخول في الإسلام، وإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة (في الأوقات المعلومة ووفق أحكام الصلاة والطهارة)، وصوم رمضان كل عام، وإيتاء الزكاة السنوية المفروضة، وقصد مكة لأداء **الحج**، مرة في العمر، بشرط توفر الاستطاعة الجسدية والمالية.

إذن فما عليك سوى إعلان الشهادتين، ثم العمل بمقتضى المعتقدات والشعائر، وستكون على جادة الصواب. قد يبدو الأمر يسيرًا؛ ولكنه ليس كذلك، ففي الواقع، إن كان هناك أمر ذو أهمية ينبغي لحديثي العهد بالإسلام أن يدركوه، فهو يتلخص في أن الإسلام دين يقوم على بناء هيكلي؛ فكل المبادئ، والتعاليم، والمعتقدات، وكل عنصر قويم من عناصر الدين الإسلامي يقوم على قاعدة في الوحي المُنزل؛ فإذا أَخبر المسلم غيره بأمر من أمور الدين، فيجب أن يكون قادرًا على دعم قوله بدليل شرعي، وأما القاعدة الذهبية للتشريع في الإسلام -ولعلها القاعدة الوحيدة المقبولة في هذا الصدد- فتتمثل في فهم أصحاب العلم الغزير (الفقهاء) لتلك الأدلة الشرعية.

ما هي مصادر التشريع الإسلامي إذن؟ هما اثنان: كلام الله (القرآن)، والسنة (وهي "نهج" النبي محمد بن عبد الله ﷺ، أي اتباع تعاليمه والتأسِّي به، كما ورد عنه في أقواله وأفعاله وصفاته وتقريراته، وكما أُثِر عنه في السنة التي تُعرف **بالحديث**)، وعليه، نقول في النهاية: إن لكل من مبادئ الإسلام وتعاليمه القويمة أصلًا من الأدلة الشرعية، ولا بد أن يكون الدليل الشرعي واضحًا حيًّا مُثبَتًا حتى يؤخذ به في إقرار تلك التعاليم. لذلك، إن أخبرك مسلم بشيء عن الدين، صديق أو غير ذلك، ثقة أو غير ثقة، فإن السؤال الفارق الذي يجب توجيهه إلى كل معلم هو: "من أين أتيت بهذا؟"؛ لأنه إن كان نتاجَ عقل بشري، فاحذر! فإنه من مزالق الهوى والرأي تلك التي أضلت الجموع الغفيرة سالفة الذكر. ومن بين السُّبُل الأخرى المؤدِّية إلى الزَّلَل:

1- الصوفية (Mysticism)، ودعونا الآن نتعمق في هذه القضية قليلًا، إنه من المؤمل من التقوى والصلاح أن يؤديا بالفرد إلى مستوًى معين من التبصر والوعي بالأمور الدينية؛ لكن على الرغم من أنه لا حرج في أن يسعى المرء إلى إدراك درجة التبصر، فإن المؤمن يضل الطريق إذا أسرف في هذا السعي، واستبدل بأسس الهداية التي أقرَّها الخالق أسسًا أخرى من صنع البشر؛ كتلك التي يعتمدها الصوفية على سبيل المثال، وهذا هو عين الانحراف تجاه المذهب الصوفي؛ حيث اعتناق تعاليم وشعائر لا أساس لها في مصادر التشريع الإسلامي (أي القرآن، والسنة، وتفسير علماء أهل السنة الثقات لهما)،

ويزداد الأمر وضوحًا إذا اجتمعت هذه التعاليم المهترئة عند أولئك القادة الروحانيين الذين يلوِّحون بمزاعم تعظِّم ذواتهم، ويدعون تبصرًا روحانيًّا فذًّا، ويتخذون من تلك التعاليم مبررًا لمعتقداتهم وممارساتهم الشاذة التي لا أساس لها من الصحة، وغالبًا -ولكن ليس في الأغلب- ما يستشهد كثير من المنحرفين المضلين بالقرآن والسنة لإثبات عقائدهم الضالة، والحق أن لجوء هؤلاء المنحرفين إلى اقتباس آيات القرآن بصورة خاطئة أو إساءة تفسيرها، وكذلك الاستشهاد بأحاديث غير صحيحة لتعضيد مواقفهم دائمًا ما ينطلي على أولئك الذين يفتقرون إلى الملكات الفكرية اللازمة للتمييز بين ما هو صحيح التفسير ومُعتبَر المصادر وبين ما هو محرَّف أو غير صحيح، وللمزيد في هذا الصدد، يُرجى الاطلاع على الفصل الخامس الذي يأتي تحت عنوان "الصوفية"، ولا يزال هناك المزيد من مسالك الضلال، ومن بينها:

2- الفلسفة (Philosophy)؛ (هذا لأن الفلاسفة لا يتفقون، ومن ثم لا توجد منهم إلا جماعة واحدة على الحق، وفي هذا الصدد انظر حال اليونانيين!).

3- العقلانية (Rationalism)؛ (هذا لأنه ليس كل أمر من أمور الدين يكون دائمًا منطقيًّا في نظر الجميع، ولأن الميل إلى رفض قواعد الدين أو تعديلها نظرًا لعدم تمكن الشخص من "فهمها بشكل منطقي" يقود إلى الانحراف وإلى الكفر في كثير من الأحيان، وعادة ما يرجع سبب سعي الناس إلى عقلنة وجهات النظر المنحرفة إلى سعيهم إلى تعديل الدين ليناسب أهواءهم، وهناك أمثلة قديمة على محاولات "عصرنة" الإسلام أو "مواءمته").

4- الغلو في التفكير، (على المسلمين أن يفكروا ويعقلوا، ليس بهدف تحقيق الإيمان في المقام الأول فحسب؛ ولكن من أجل ممارسة الدين وتطبيقه على نحو سليم أيضًا، ومع هذا، فإن للتفكير حدودًا عملية؛ أي أن هناك أمورًا يلزم الناس التسليم بقبولها والاعتقاد فيها وممارستها، ومن هذه الأمور على سبيل المثال: أوامر الله، فإذا رفض الناس قبولها، أو تصديقها، أو العمل بها، وقعوا في العصيان والضلال.

5- الاحتجاج الباطل، (مِثل الاستشهاد بآيات القرآن في غير مَوْضِعها، أو إساءة تأويلها، أو الاستعانة بأحاديث ضعيفة أو مَوضُوعة من أجل دعم الآراء الشاذة).

6- التصدي لإصدار حكم على قضية ما رغم افتقاد الأهلية العلمية لذلك.

ولكن إذا اهتدى الناس بقول علماء ثقات مُعتبَرين، يستنبطون الأحكام من القرآن المجيد والسنة الصحيحة، فلهم أن يطمئنوا عندئذ، أما في غياب البراهين التي يسوقها العلماءُ الثقات بما يتوافق والأدلةَ الثابتة من الكتاب والسنة، فلا يأمن المرء في تلك الحال، وعند استعراض التاريخ، نلاحظ أن البشرية تَضِل الطريق إذا أفلتَ زمامُ العقل البشري من يد الأدلة الداعمة، ومن ثم يهيم هذا العقل في فضاء تلك التفسيرات المغرية، ومن الأمثلة الدالة على ذلك، بحْث الخيميائيين عن "حجر الفلاسفة" (تلك المادة الأسطورية التي يمكنها تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب)، وعن إكسير الحياة، وعن آنية الذهب، وعن الأحلام التي تروِّج لها كل أسطورة لطالما أطلقت سفينة أو

رحلة على مياه العدم، ومع ذلك، لم يحدث أن تسببت أي من هذه الأساطير الزائفة في التضحية العبثية بمزيد من الثروة والطاقة والأرواح والأنفس أكثر مما فعلت الأساطير المتعلقة بدين باطل.

ويكشف كتاب (*MisGod'ed*) حقيقة العديد من أساطير اللاهوت اليهودي والمسيحي الحديث مبينًا أنها تستند إلى أسس واهية أو مختلقة، أو ربما تفتقر إلى أي أسس؛ في حين أن الإسلام السني لا يقبل مثل هذه الأكاذيب في العقيدة، ويُبقِي على نقاء تعاليمه عن طريق حَث العلماء على استنباط الفقه (التشريعات الإسلامية) من المصادر الأصيلة الثابتة المُعتبَرة للدين، وإلزام عامة الناس باتباع الأحكام الصحيحة التي أقرَّها العلماء الثقات.

ومن المؤسف أن كثيرًا من حديثي العهد بالإسلام يصدقون الفرضية المتفائلة والساذجة القائلة بأن جميع "العلماء" لديهم علم عن كل ما يتحدثون عنه، وأن كل المسلمين على جادة واحدة، فأقول لهم: هيهات! صحيح أن كثيرًا من الفرق تُلحَق بالإسلام؛ ولكنها تتفاوت في المعيار العقدي بدءًا بالابتداع الهين ووصولًا إلى الكفر البواح، وإن كانت بعض الفرق المبتدعة تتشبث بالحدود الواضحة للإسلام، فإن البعض الآخر منها بعيد كل البعد عن وصف الإسلام.

ومن هنا وجبت الحاجة إلى التسمية.

والمسلمون، بوجه عام، لا يفضِّلون إلا أن يُسمَّوا **مسلمين**؛ وذلك لأن الله ﷻ وصف المؤمنين في القرآن المجيد بأنهم مسلمون؛ وأما هؤلاء الذين يبجلون سلطان الله، فيعلمون أنه لن يأتي البشر بتسمية -أو وصف- تضاهي تلك التي اختارها الخالق نفسه، ومع هذا، أصبحت المسميات ضرورية من أجل التمييز بين الجماعات المختلفة، وتمثل السنة والشيعة أكبر فرقتين في العالم الإسلامي؛ أما أهل السنة والجماعة فيلتزمون بسنة (نهج) النبي محمد ﷺ، كما وردت في التراث الإسلامي (الحديث النبوي)؛ بينما يلتزم الشيعة بتعاليم قاداتهم في الدين (الأئمة)، سواء أكانت تلك التعاليم توافق القرآن والسنة أم لا، تماما كما يرفع الناس شأن الزعماء المؤثرين فوق الحقيقة الجلية، عندئذ تتسلق شرذمةٌ قليلة من الأشخاص غريبي الأطوار، ذوي الأفكار الشاذة سلسلةَ الثقات في فترات تاريخية متعددة، فيرسخون ضلالهم في أحكام الدين، ويبعدون بمعتقدات الدين، خطوة منحرفة فأخرى، عن حقيقة منابعه الأصلية.

ولقد عملت الاتجاهات الضالة المدمرة -كتلك التي تطورت في قلوب جماعة الشيعة وأذهانها- على بتر مذاهب عدة من جسد أهل السنة والجماعة؛ ورغم هذا، فإن الإسلام السني يمثل نسبة تقدَّر بنحو 95٪ من المسلمين في العالم، وحق له ذلك، ونقول في بادئ الأمر: إن المنهجية أمر منطقي، فالإنسان الذي يرضى بالإسلام دينًا يقر بعلو سلطان الله ووحدانيته، وهو ما يلزم معه نفي أي تصور عن إشراك غير الله في العبودية، كما في قول الله ﷻ: {**فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**} (البقرة:22)، وقوله تعالى: {**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**} (الإخلاص: 1-4).

إذن، ليست هناك إلا عظمة واحدة وسلطان واحد، وهما لله، وعلينا إجلال تنزيله للقرآن المجيد كتابًا خاتمًا، ولمحمد بن عبد الله ﷺ رسولًا خاتمًا، أضف إلى ذلك أمر اللهِ للبشرَ دائمًا وأبدًا في قرآنه المجيد بالتأسِّي بالنبي الخاتم، وبطاعتهِ سبحانه وطاعة رسولِه محمد ﷺ. نعلم أن ذِكْر الأمر

مرة واحدة كافٍ، إلا أن تكرار الله ﷻ هذا الأمر مرة بعد أخرى في كتابه يحسم أي خلاف يدور حول هذه القضية.

ونظرًا لأن محمدًا ﷺ كان نموذجًا فذًّا غير مسبوق، فقد اجتهد المسلمون الأوائل اجتهادًا أسطوريًّا في حفظ ذخائر الحديث الشريف، ولهذا، لا تجد في تاريخ البشر شخصًا قد أُثِر ووُثِّق عنه مثل ذلك الكم الهائل من الآثار، مما أتاح لنا الاطلاع على حياة محمد ﷺ، وشخصيته، وتعاليمه اطلاعًا مُفصَّلا تفصيلًا دقيقًا، والمسلمون من أهل السنة يتبعون هديه بتفاصيله تلك، ولم يتحقق هذا الأمر على هذا النحو من التفصيل والإيضاح في سير الأنبياء السابقين.

وعلى عكس هذا، تتألف الشيعة من جماعة واحدة تضم قائمة طويلة من الفِرَق الضالة التي آثرت الانصراف عن سنة محمد ﷺ، بقدر متفاوت فيما بينها، واتخذت تعاليم زعماء مذهبهم بديلًا عنها، مَثَلُهم في ذلك مَثَل النصارى الذين نبذوا تعاليم عيسى المسيح واستمسكوا بعقيدة بولس (Paul) الأكثر تساهلًا، رغم أنها تتعارض مع ملتهم، فالواقع أن أتباع الفرق الضالة المنتسبة للإسلام يضعون تعاليم البشر في مرتبة أعلى من تلك التي ترتكز على أصول من القرآن، والسنة، وفهم العلماء الثقات.

ومن المؤسف -والمتوقع أيضًا- أن كثيرًا من أصحاب المناهج المنحرفة يعمدون إلى الاستشهاد بآيات القرآن في غير موضعها الصحيح، أو يُسيئون تأويلها في محاولة لإضفاء صبغة الصحة على مذاهبهم المنحرفة، وقد تبدو بعض هذه الأدلة وجيهة لمن لم يبحث في صحة ما يقال له، ويشهد لذلك قول وليم شكسبير (William Shakespeare): "قد يستشهد الشيطان بفقرات من الكتاب المقدس لتحقيق غرضه"[3].

ولا بد لحديثي العهد بالإسلام -ممن لا يقدرون على التمييز بين الرشد والضلال، وبين مدعي العلم الكاذبين الداعين إلى الضلال والعلماء الثقات الداعين إلى الحق- أن يحرصوا على البحث والتثبُّت مما يقال لهم، والأهم من هذا، أن يدعو المؤمنون الله أن يحفظ لهم قلوبهم، وعقولهم، وأجسامهم، ونفوسهم من الضلال، وأن يهديهم صراطه المستقيم ويثبتهم عليه، وهذا هو الدعاء الوارد في سورة الفاتحة أول سُوَر القرآن المجيد، وهي السورة التي لها من العِظَم والأهمية ما جعل الله سبحانه وتعالى يأمرنا بتلاوتها في بداية كل ركعة من كل صلاة، إذن، على المسلمين الصادقين أن يدعوا بهذا الدعاء بصدق وإيمان.

وحول هذا الأمر المذكور أعلاه، نذكر فيما يلي كتابين مفيدين جدًّا في استعراض ضلالات الشيعة، وبعض الفرق الضالة الأخرى:

1. (*The Mirage in Iran*) "سراب في إيران"، ترجمة الدكتور أبو أمينة بلال فيليبس وتأليف الأستاذ أحمد الأفغاني.

2. (*The Devil's Deception*) "تلبيس إبليس"، ترجمة الدكتور أبو أمينة بلال فيليبس وتأليف ابن الجوزي.

---

[3] شكسبير، وليام. (*The Merchant of Venice*). I.iii.

1- أ) الفرقة الناجية

ورد في أحد الأحاديث الشهيرة أنه بنهاية الزمان ستفترق الأمة الإسلامية على 73 فرقة، منها 72 فرقة في النار، وعندما سئل محمد ﷺ عن الفرقة الناجية قال: **"ما أنا عليه وأصحابي"**[4].

ويرى بعض المسلمين أن في سند هذا الحديث ضعفًا، بينما يرى آخرون أن كثرة طرق الحديث ترجح صحته، ونقول في كلتا الحالتين: إنه إن لم يفترق الإسلام بعد على 73 فرقة، فإنه في طريقه اليوم إلى ذلك، ولعل العديد من طوائف الشيعة، والأعداد المتزايدة من غلاة الصوفية، وجماعة الأنصار، وحركة أمة الإسلام، والأحمدية (وتعرف كذلك بالقاديانية)، والقرآنيين، وكثيرًا غيرهم يمثلون صورًا عدة من صور الانحراف عن النهج الحنيف لأهل السنة والجماعة، ومن المعروف أن القول بأن الفرقة الناجية هي تلك التي تستمسك بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه قول لا مِرَاء فيه عند المؤمن الحق.

ومع هذا، نجد أن هناك من يقترح إجراء مراجعات على الإسلام بزعم الحاجة إلى عصرنة الإسلام بما يتوافق والتغيرات الاجتماعية والسياسية التي طرأت على مدار الـ 1400 عام الماضية، وفي الوقت الحالي يعتبر المسلمون من أكبر دعاة التقدم على مدار التاريخ، وقد قامت الثورة الصناعية الأوروبية في كثير من جوانبها على العلوم والابتكارات المأخوذة عن العالم الإسلامي، في وقت اعتادت فيه الطبقات الأرستقراطية الأوروبية ابتعاث أبنائها للدراسة في الجامعات الإسلامية بالأندلس؛ فلقد برع المسلمون في اللغة وعلومها، وفي الفيزياء التطبيقية والبصرية والنظرية، وفي الكيمياء العضوية وغير العضوية، وفي الرياضيات، وكذلك في الزراعة، والطب، والجغرافيا، والفلك، وهذا غيض من فيض علومهم ومجالاتهم الفكرية، فهذا التقدم التكنولوجي الذي مهد الطريق نحو عالم أفضل، يعود في الأصل إلى إبداعات المسلمين، كما أن مفهوم الجامعة نفسه يرجع إلى التصور الذي وضعه المسلمون لمؤسسات التعليم العالي[5].

من هذا المنطلق، لا يجد المسلمون حرجًا في تناول القضايا التي تتعلق بوجودهم وتطورهم عبر الزمن في الأمور التي لا تتعارض مع مبادئ الدين، ومع هذا، فإن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى نبيه الخاتم، محمد ﷺ أنه لن يقبل أي تحريف للدين أو ابتداع فيه؛ فقد ورد في حديث عائشة أن محمدًا ﷺ قال: **"مَن عَمِلَ عَمَلًا ليسَ عليه أمْرُنا فَهو رَدٌّ"**[6].

ففي حين أن الاستحداث في التعاملات الدنيوية قد يكون محمودًا إلا أنه لا مجال للابتداع في الدين ذاته؛ حيث إن كل بدعة في الدين تقود إلى جهنم، ولو استحضرنا حقيقة أن البشر لم يُخلقوا إلا لطاعة الله وعبادته (كما ورد في قول الله ﷻ: {**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**} (الذاريات: 56))، لأصبح الأمر جليًّا؛ فليس الهدف هو جعل الحياة يسيرة وممتعة في كافة جوانبها، وإنما هو تحسين الممارسات الحياتية من أجل تيسير المهمة الأساسية التي خُلق من أجلها البشر، وهي طاعة الله وعبادته.

---

[4] الترمذي (2641).

[5] وللمزيد في هذا الصدد، انظر الكتاب الثالث في هذه السلسلة من (*God'ed*)، وكذلك كتاب (*Islam and Science*)، تأليف شبير أحمد، وأنس عبد المنتقم، وعبد الستار صديق، ونشرته Islamic Cultural Workshop, P.O. Box 1932, Walnut, CA 91789; (909) 399-4708.

[6] البخاري (2550)، ومسلم (1718)، وأبو داود (4606)، وأحمد (26075، 26372).

وعليه، فإن تيسير الحياة فيما يخصُّ شِقَّها الدنيوي أمر مرغوب؛ لأنه يحسن الظروف الإنسانية ويُفرِّغ الفرد -على الصعيدين البدني والذهني- للعبادة؛ ففيما يخص الجانب البدني، فإن العيش في ظروف حياتية جيدة يعين المرء على أداء العبادة، وفيما يخص الجانب الذهني، فهي توفر للمرء المزيد مما ينبغي معه شكر الله والامتنان له، وعلى الصعيد الآخر، فإنه من المذموم محاولة تيسير الدين عن طريق تمييع واجبات الدين، فبذلك يكون الفرد قد جحد الله واجباته التي خُلِق من أجلها في المقام الأول. صحيح أن الهاتف النقال أفضل من الحمام الزاجل؛ لكن في حين أن أداء أربع صلوات في اليوم أسهل من أداء خمس، بيد أنه ليس الأفضل بالتأكيد؛ لأن أي بدعة تتعارض مع الشريعة الإسلامية (قوانين الدين) هي انحراف عن الدين، ومعول هدم وتمييع له، وليست سبيلًا للتيسير.

ويضعنا هذا الكلام أمام قاعدة عامة حاكمة على حديث العهد بالإسلام، فتذكرها جيدًا. تنص هذه القاعدة على أن العبادات (وهي أي أمر يَرتَجي المتعبِّد من ورائه الأجرَ من الله سبحانه) الأصل فيها التحريم سوى ما أحله الشرع، في حين أن الأصل في أمور الدنيا الإباحة باستثناء ما حرمه الشرع، ولقد اتفق العلماء على هذه القاعدة، وعلى المسلمين جميعهم أن يضعوها نصب أعينهم؛ لأنها تجلب التيسير في أمور الدين وتسهل عملية اتخاذ القرار، والأدلة على ذلك من الكثرة بما يتعذر معها إيرادها في هذا المقام؛ لكن لا يفوتنا أن نقول: إن الله ﷻ قال في إحدى آخر آيات القرآن نزولًا: {**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**} (المائدة: 3)، ومع التزام المسلم بهذه **الآية** إلى جانب أمر الله المتكرر: {**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**} (أي محمد ﷺ)، فإن عليه أن يُجِل الأحاديث التي قال فيها محمد ﷺ:

1. "مَن عَمِلَ عَمَلًا ليسَ عليه أمْرُنا فَهو رَدٌّ"[7].

2. "ما نَهَيْتُكُمْ عنْه فاجْتَنِبُوهُ، وما أمَرْتُكُمْ به فافْعَلُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ"[8].

3. "إن اللهَ تعالى فَرَضَ فرائضَ فلا تُضَيِّعُوها، وحَدَّ حُدُودًا فلا تَعْتَدُوها، وحَرَّمَ أشياءَ فلا تَنْتَهِكوها وسكت عن أشياءَ رحمةً لكم غيرَ نِسْيانٍ فلا تَبْحَثوا عنها*"[9].

ونضيف إلى ذلك قول الله ﷻ:

- {**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**} (الحشر: 7).
- {**ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ**} (الأعراف: 157).

---

[7] البخاري (باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ، خلاف الرسول، من غير علم، فحكمه مردود)، ومسلم (1718).

[8] البخاري (6858)، ومسلم (130).

*ومعناه ألا نتعمق في قضايا قد أخفى الله -حكمةً منه ورحمة- حُكمَها؛ إذ العلم بحقيقتها قد يجلب الضرر أكثر من النفع، وفي هذا يقول الله ﷻ في قرآنه الكريم: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ**} (المائدة: 101). ونظرًا لأن الوحي والدين قد تمًّا وكَمُلا، فإن الفروض معلومة لا تقبل الزيادة، كما أن محرمات الدنيا معلومة، مما يسوِّغ قبول ما لم يُحرَّم، ومن ثم، علينا الإحجام عن الجدال والتمحيص فيما لم ينزل اللهُ فيه حُكْما.

[9] الدارقطني (42، 104).

- {**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا**} (البقرة: 29)، والآية تدل على إباحة كل ما لم يحكم بحرمته من أُمور الدنيا.
- {**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ**} (الأعراف: 32)، وتشير إلى بطلان تحريم ما **لم** يحرمه الله ﷻ من أمور الدنيا.

إذن، فتلك القاعدة التي تنص على أن الأصل في العبادات المنع باستثناء ما أباحه الشرع، وأن الأصل في الأمور الدنيوية الإباحة باستثناء ما حرمه الشرع، لا ترتكز على أدلة دامغة فحسب؛ بل لها بالغ الأثر كذلك. ونظرًا لارتباط تلك القاعدة بموضوع نقاشنا، فننصح الباحثين عن أيسر الحلول لمعالجة أمورهم الدنيوية والمادية باتباعها؛ فلقد ورد في الحديث الصحيح أنه: **"ما خُيِّرَ النبيُّ ﷺ بيْنَ أمْرَيْنِ إلَّا اخْتارَ أيْسَرَهُما ما لَمْ يَأْثَمْ"**[10].

أما الابتداع في العبادات فهو أمر مذموم ومنكر، ويقول الإمام مالك في هذا الصدد:

> "من ابتدع **للأمة** في زماننا أمرًا لم يكن عليه السلف الصالح، فقد زعم أن النبي (محمد ﷺ) قد خان **الأمة**؛ لأن الله ﷻ قال: {**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**}، فما لم يكن يومئذ دينًا (في زمن محمد ﷺ وأصحابه)، لا يكون اليوم دينًا"[11].

وجوهر القضية أنه في حين أن هناك سعة في التيسير على الناس في الأمور الدنيوية، فإن هناك حدًّا أدنى لذلك فيما يخص أمور العقائد والشعائر، حدًّا إذا تجاوزه المرء فَسَدَ دينه، وأما الحدود الدنيا للوازم العقيدة الإسلامية فشديدة الوضوح، ومن الأمثلة الدالة عليها ما ورد في الحديث الآتي:

> **"جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ مِن أهْلِ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ ولَا يُفْقَهُ ما يقولُ، حتَّى دَنَا، فَإِذَا هو يَسْأَلُ عَنِ الإسْلَامِ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: خَمْسُ صَلَوَاتٍ في اليَومِ واللَّيْلَةِ، فَقالَ: هلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قالَ: لَا، إلَّا أنْ تَطَوَّعَ، قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: وصِيَامُ رَمَضَانَ، قالَ: هلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قالَ: لَا، إلَّا أنْ تَطَوَّعَ، وذَكَرَ له رَسولُ اللَّهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قالَ: هلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قالَ: لَا، إلَّا أنْ تَطَوَّعَ، فأدْبَرَ الرَّجُلُ وهو يقولُ: واللَّهِ لا أزِيدُ علَى هذا ولَا أنْقُصُ، قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: أفْلَحَ إنْ صَدَقَ"**[12].

ويلخص هذا الحديث على نحو دقيق الحدود الدنيا للشعائر الدينية، ويثبت في الوقت ذاته أن الاقتصار على هذه الحدود الدنيا يؤدي إلى الفوز بالجنة.

والحق أن هذه القاعدة منطقية؛ فالبشر تسير حياتهم وَفْق مثل تلك المعايير بآلاف الصور في اليوم الواحد، فعلى سبيل المثال، يحتاج الجسم حدًّا أدنى من نسبة الأكسجين كي يبقى على قيد الحياة، وحدًّا أدنى من درجة الحرارة كذلك، فإذا أبقينا على هذه الحدود الدنيا نجا الناس، أما إذا جاوزناها ولو بقدر بسيط كان الموت محقَّقًا، وبالطريقة ذاتها، تحتاج السيارة كمية معينة من الوقود لتنتقل من نقطة إلى أخرى، ويؤدي نقص نزر يسير جدًّا من هذا الحد الأدنى من الطاقة إلى توقُّف السيارة قبل بلوغ مَقصدها ولو بالقدر الضئيل. صحيح أنه في تلك الحال يمكن للمرء القول:

---

[10] البخاري (3367)، ومسلم (2327)، ومالك (1603).
[11] الإحكام لابن حزم.
[12] البخاري (42)، ومسلم (11).

"سأوقفها وأمشي ما بقي من المسافة"؛ ولكن هناك أمورًا لا يستطيع المرء تعويض ما فَاتَه منها بالمَشْي، ومن بينها الفشل؛ فإذا نَقَصَ التقدير عن "الامتياز" بدرجة واحدة لم يَعُد هناك "امتياز"، وإذا نقص مقدار الأوقية جرامًا واحدًا لم تعد أوقية، وإذا تأخرتَ عن الفائز خطوة جئت في المركز الثاني، كما أن استمرار الغوص في الماء لثانية واحدة إضافية يؤدي إلى الغرق، وعليه، إذا قلَّ الشيء عن الحد اللازم كان النَّقْص. وإذا زادت نسبة الأكسجين أو درجة حرارة الجسم عن الحد اللازم ساءت حال الإنسان؛ ولكن لن يكون الخطر بالغًا، ولو زودنا المركبة بوقود إضافيٍّ لزاد الاحتياطي المتوفر الذي يُلجأ إليه عند الحاجة. يمكن للإنسان العيش بالحدود الدنيا، على حافة الأمور إن جاز لنا التعبير؛ ولكن سيكون هناك مخاطرة ونصَب وحماقة لا داعي لها في غالب الأحايين، فلا يمكن العيش على نحو أفضل بالحدود الدنيا فحسب، وتلك هي الحال في الدين أيضًا، فأولئك الذين يَلزمون حد الكفاية في القول والعمل يحومون حول حمى الدين؛ إذ يخاطرون في كل وقت وحين بالوقوع فيه، أما من يسعى لإتمام الإيمان والعمل والعبادة فهو في بحبوحة من الأمان الذي لا يتحقق إلا ببلوغ درجات عليا من الالتزام الديني.

وبينما يظل مبدأ الركون إلى الحد الأدنى هو السائد في أوساط الرياضات الخطرة ومجال الاستثمار المالي؛ حيث يأتي الوصول إلى الشهرة أو تحقيق الثراء على حساب التعرض للإصابة أو الإفلاس، فإن اتباع ذات المبدأ في أمور الدين فيه مخاطرة بنجاة العبد؛ ولكن ما هو المقابل؟ هو بضع دقائق يضن بها على الصلاة، سويعات قلائل يضن بها على الصيام، مال يسير يُضَن به على التصدق؟ إنه ثمن زهيد من أجل النجاة، كما قد يظن العبد؛ ولكنه يستحق التضحية بلا شك من أجل أن ينعم الإنسان بالأمن التام والسكينة، ولا يعني هذا وجوب انصراف العبد عن الأمور الدنيوية الأخرى، فالأمر على خلاف ذلك؛ إذ يحيا المسلم حياة تتسم اتسامًا واضحًا بالطهر والصدق والعافية والرضا، ومما يدل على نجاح المعيار الإسلامي أن مجالات السياسة، والمعاملات، والأسرة والمجتمع، والاقتصاد، والقانون المدني والجنائي، وغيرها من النظم البشرية في الإسلام قد مرت بفترات من الازدهار والنجاح بفضل تلك المبادئ الدينية القويمة التي قامت عليها.

ونحن نطبق الإسلام اليوم على هدي النبي محمد ﷺ؛ مما يجعل الإسلام الدين الإبراهيمي الوحيد الذي يُطبق على مثال أصله النقي، ولئن كان هناك معيار للنجاح يُظهِر الحقيقة، فإنه كامن في هذا الأمر، زد على هذا أن الله قد شاء وقدر دوام وجود جماعة من المسلمين على الحق؛ مِصْداقًا لما ورد في الحديث الصحيح الذي يقول فيه محمد ﷺ: **"لا تَزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلُونَ علَى الحَقِّ ظاهِرِينَ إلى يَومِ القِيامَةِ"**[13].

فلنجتهد أن نكون منهم.

[13] البخاري (3441)، ومسلم (156)، وأبو داود (4252)، والترمذي (2229).

2) الأركان

أول سؤال يعرض للعبد فور اعتناقه دين الإسلام هو: "ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟" والجواب باختصار هو: "عد إلى البيت، واغتسل، واشرع في الصلاة".

ويستحب لمن دخل في الإسلام أن يتطهر بتعميم الجسم كله بالماء، ولهذه الشعيرة طابع خاص؛ فهي تشبه شعيرة التعميد عند النصارى في دلالتها على ميلاد الروح من جديد، ويخبرنا الإسلام أنه إذا أسلم المرء غُفِرَت له جميع ذنوبه السالفة، فكما أن الروح تطهرت من الذنوب بفعل شهادة الإيمان الصادقة، يتطهر الجسد أيضًا تطهرًا رمزيًّا بالماء النقي.

أما العبادات التي تتعين على العبد بدخوله في الإسلام فخمسة؛ أولها **الشهادتين** (شهادة الإيمان)، مع العلم بأن تلك الشهادة تقتضي إقرار العبد إقرارًا ضمنيًّا بإيمانه بأركان الإيمان (وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر)، وتشتمل العبادات الأربعة الأخرى على: **الصلاة** خمس مرات في اليوم والليلة (في مواقيت محددة، وبما يتوافق وأحكامَ الإسلام في الصلاة والطهارة)، **وصوم** رمضان مرة كل عام، وإيتاء **الزكاة**، وقصد مكة في موسم **الحج** مرة في العمر إذا توفرت الاستطاعة البدنية والمالية، وعليه، إذا أخذنا العبرة من الدرس الماضي يكون السؤال: "حسنٌ، كيف أفعل هذه الأمور؟" أو بالأحرى يكون أول سؤال: "حسن؛ ولكن فضلا أخبرني أولًا من أين أتيتَ بهذه التعاليم؟".

وجوابنا هو: أتينا بها من القرآن والسنة؛ ففيما يخص أركان الإيمان، قال الله ﷻ: {**... وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**} (البقرة: 177)، وفي شأن الأركان الخمسة، قال الله ﷻ: {**وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ... وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ...**} (البقرة: 177)، وقال ﷻ أيضًا: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...**} (البقرة: 183-185)، وقال ﷻ كذلك: {**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ**} (البقرة: 196)، وقد جاء ذكر هذه الحقائق الإيمانية وتوضيحها في مواضع عديدة من القرآن الكريم بصفة مجملة أو مفصلة، وهناك الكثير من الآيات التي تؤكد وحدانية الله وقدرته وقضاءه في غير موضع من الكتاب، ولا يمثل ما سبق إلا نزرًا يسيرًا من الأدلة الداعمة من الكتاب الكريم، وإذا تأملنا في السنة وجدنا حديث جبريل المشهور الذي يرويه عمر ﷺ (من أصحاب محمد ﷺ، وثاني الخلفاء الراشدين) قائلًا:

"**بيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ الله ﷺ ذاتَ يَومٍ، إذْ طَلَعَ عليْنا رَجُلٌ شَدِيدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَدِيدُ سَوادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عليه أثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حتَّى جَلَسَ إلى النبيِّ، فأسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، ووَضَعَ كَفَّيْهِ علَى فَخِذَيْهِ، وَقالَ: يا مُحَمَّدُ، أخْبِرْنِي عَنِ الإسْلامِ، فقالَ رَسولُ اللهِ: الإسْلامُ أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتِيَ الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبِيلًا، قالَ: صَدَقْتَ، قالَ: فَعَجِبْنا له يَسْأَلُهُ ويُصَدِّقُهُ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ الإيمانِ، قالَ ﷺ: أنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، والْيَومِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ، قالَ: صَدَقْتَ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ الإحْسانِ، قالَ ﷺ: أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قالَ ﷺ: ما المَسْؤُولُ عَنْها بأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، قالَ: فأخْبِرْنِي عن أمارَتِها، قالَ ﷺ: أنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها، وأَنْ تَرَى الحُفاةَ العُراةَ**

العالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطاوَلُونَ في البُنْيانِ، قالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قالَ ﷺ لِي: يا عُمَرُ، أتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلتُ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ ﷺ: فإنَّه جِبْرِيلُ أتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ"[14].

وقوله ﷺ كذلك:

"**بُنِيَ الإسْلَامُ علَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَسولُ اللَّهِ، وإقَامِ الصَّلَاةِ، وإيتَاءِ الزَّكَاةِ، والحَجِّ، وصَوْمِ رَمَضَانَ**"[15].

وبعد أن أثبتنا صحة تلك التعاليم، دعنا نواصل الحديث.

تستغرق شعائر الصلاة وقتا كي يتعلمها المرء، وعلى حديث العهد بالإسلام أن يعي أن الله يعفو عن التقصير في البدايات، طالما أن العبد يبذل ما في الوسع ليتعلم ويحسن ما يفعل؛ ولكن الصلوات يجب أن تؤدى في أوقاتها المفروضة، وعلى حديث العهد بالإسلام سرعة تعلُّم الصلاة وإتقانها قدر المستطاع، وبما يتوافق والهيئةَ والشروطَ التي أقرَّها **الشرع** فيما يخص أمرها.

ويواجه حديث العهد بالإسلام في عامه الأول الالتزام بصوم شهر رمضان، وقصدُ مكة لأداء الحج في موسمه، الذي يحين وقته بعد صوم رمضان بشهرين هجريين، ويتجلى في هاتين الشعيرتين الجانب العملي للدين؛ فقد يرى البعض في الصوم للمرة الأولى أمرًا بالغ المشقة؛ بيد أنه من الجيد أن يعلم المرء أنه يمكن استدراك ما فات من الصيام لعدم الاستطاعة، وهو ما يمنحه الشعور بالارتياح، ولأجل هذا، يسقط الصيام عن غير المستطيع الذي يلاقي مشقة بسبب مرضه أو تقدُّمِه في السن، والأمر فيه تفصيل، و**الحج كذلك**؛ فهو فرض على كل مسلم قادر (بدنيًّا وماليًّا)؛ لكنه يسقط عن غير المستطيع الذي حالت الظروف بينه وبين أداء الحج، ومع هذا، لا ينبغي التهاون في شأن هاتين الشعيرتين المهمتين، وعلى العبد ألا يركن إلى اعتبار سقوط الشعيرة عنه إلا إذا عجز عن أدائها تمامًا، فقد أكد عمر ﷺ على أهمية **الحج** قائلًا: "**من استطاع أن يحج ولم يحج فلْيمُتْ إن شاء يهوديًّا وإن شاء نصرانيًّا**"[16].

إن إيتاء **الزكاة** -حقِّ الفقراء المعلوم- مرة في كل عام آخرُ شعائر الإسلام الخمسة المفروضة على من يعتنق الإسلام، وهي من أكثر الشعائر التباسًا على الناس؛ فمقدار **الزكاة** ليس عُشرًا؛ لأنها ليست نسبة مفروضة على الدخل، فبعض الناس قد يعتاش على دخله كله، ومن ثم لا يكون قادرًا على إخراج أي شيء منه، إذن، فالزكاة ليست نسبة مئوية من الدخل؛ وإنما من فَضْلَة الدخل؛ ما يعني أنه يتعين على المسلم إخراج قدر بسيط -سواء 2.5% أم 5% تبعا لنوع المال- من الزكاة من الثروة التي تزيد على الحاجة، ويحول عليها حولٌ كامل، فلو امتلك شخص مليون دولار لمدة أحد عشر شهرًا، ثم فقدها في الشهر الثاني عشر، فلا **زكاة** عليه، وكذلك الحال إذا بدأ المرء عامه بمنزل وسيارة وراتب، حتى وإن كان راتبًا كبيرًا، وحال عليه الحول ومعه المنزل والسيارة والراتب، ولم يدخر شيئًا زائدًا على حاجته للعام التالي، فلا **زكاة** عليه، ولا تجب الزكاة

---

[14] مسلم (8).
[15] البخاري (8)، ومسلم (16).
[16] البيهقي (8444).

إلا في بعض صنوف الممتلكات (ومنها: المال، والذهب، والزروع، وعروض التجارة، والأنعام، إلى غير ذلك) فيما زاد على حاجة المرء، وفيما حال عليه حول كامل[17].

والنقاش السابق ليس سوى تقدمة بسيطة؛ إذ يمكننا دراسة كل ركن من الأركان الخمس في كتاب مستقل، والحق أن ذلك قد تم بالفعل لمرات متكررة، وهنا نؤكد مجددًا ونقول: لا يستهدف هذا الكتاب تكرار ما سبق تقديمه؛ بل إيضاح أفضل السبل التي تُمكن حديثي العهد بالإسلام من ممارسة العبادات في حياتهم، ومما يتيسر في هذا الصدد ذكر عدد من الكتب التي ناقشت موضوع أركان الإسلام، ومن ثم الانتقال إلى الموضوع التالي؛ ولكن من دون عجلة، فهناك مسألة سرعان ما بدت لنا هنا، وعلينا معالجتها قبل استكمال الحديث.

تكمن هذه القضية -وهي من الأهمية بمكان، إن لم تكن حجر أساس- في أنه: نظرًا لمعرفة المرء بالأصول الواضحة السلسة للإسلام المُتمثِّل في كلام الله المنزَّل في القرآن الكريم، وفي نموذج الرسول محمد ﷺ كما أُثِر عنه في السنة (الحديث)، فقد يَظن البعض أن هناك جوابًا شافيًا كافيًا لأي من المسائل البسيطة المباشرة، صحيح أن هذا الظن المأمول يتحقق بنسبة تتراوح بين 80% و90%؛ لكنه لا يتحقق على الدوام، فالحق أنه -وبنسبة تتراوح بين 10% إلى 20%- لا يتوفر إجماع العلماء على بعض قضايا الدين، وعلى الرغم من انزعاج البعض من عدم إجماع العلماء على بعض القضايا؛ فإنه أمر لا بد أن يحظى بالقبول والتقدير، ولنفصِّل القول في هذا.

[17] طبقًا للشريعة الإسلامية **تسقط الزكاة** إذا لم يبلغ المال النصاب، ويقدَّر هذا النصاب بما قيمته السوقية 85 جرامًا من الذهب أو 595 جرامًا من الفضة؛ إذ تسقط عما دون هذا النصاب، ولا تحق الزكاة إلا فيما زاد على هذا النصاب من أموال، وفيما حَالَ عليه حولٌ كامل.

2- أ) الاختلاف

لأنني كنت حديث عهد بالإسلام، فقد تأملتُ قضية اختلاف العلماء بشيء من الحيرة، وظللت في صراع مع تلك القضية على مدار عامين تقريبًا، حتى قابلت ذات يوم أخًا مغربيًّا في شوارع كمبريدج بإنجلترا، وكنا في طريقنا لأداء **صلاة الجمعة**، فدار نقاش بيننا حول هذا الموضوع، وحينها أشار هذا الأخ إلى أحد المباني وقال ما معناه: "أرأيت هذا المبنى؟ إنني مهندس معماري، ويمكنني القول: إن جميع المباني تصمَّم بحيث تتمتع بشيء من المرونة، وهذا أمر ضروري؛ إذ إنه من اللازم أن تكون جميع المباني قادرة على مقاومة الرياح، والهزات الأرضية أو الزلازل؛ بل حتى درجات الحرارة، فإذا كان المبنى شديد الصلابة، كانت صلابته سببًا في ضعفه، وتعرضه إلى الحد الأدنى من الضغط سيسبب تصدعًا واضطرابًا هيكليًّا، ومن ثم انهيارًا تامًّا في النهاية، وتلك هي الحال مع الدين؛ إذ يجب أن يكون هناك قدر من المرونة؛ ومرونة الإسلام تكمن في اختلاف آراء العلماء".

ولقد أعانني هذا الأخ إلى حد كبير على أن أبدأ في إدراك الحكمة الإلهية من وراء هذه القضية، ورويدًا رويدًا اتضحت لدي عدة أمور؛ أولها إجماع علماء الإسلام على القضايا الأساسية؛ فهم لا يختلفون إلا في القضايا الفرعية، فعلى سبيل المثال، يتفق العلماء على وجوب أداء الصلوات الخمس في كل يوم وليلة، وعلى شروط الصلاة كذلك؛ مثل وجوب طهارة كل من المصلي وموضع الصلاة والملبس، وعلى معظم متممات الصلاة نفسها، وعلى الشروط التي تَصِحُّ بها وتَبطُل... إلى آخره، وعلى الرغم من هذا، يختلف العلماء في بعض القضايا الصغرى الفرعية؛ مثل الموضع الصحيح ليدي المصلي أثناء وقوفه في الصلاة، والهيئة الصحيحة لرفع الإصبع عند الجلوس للتشهد، ووجوب الجهر بالبسملة (وهي أول آية في سورة الفاتحة ونصها: "بسم الله الرحمن الرحيم") من عدمه... إلخ، وفي مثل هذه الاختلافات متسع للأخذ والرد؛ إذ لم يتمكن علماؤنا الكبار قديمًا من حسمها، على ما كانوا يتمتعون به من علم وحكمة يفوقون بهما علماء اليوم.

وبالرغم من أن بعض قضايا الفقه قد أفادت من البحث المستفيض، فالواقع أنه في عصرنا الحالي يُوجه جُل جهود **الفقه** نحو إصدار أحكام تتعلق بما يَستجِدُّ من قضايا أحدثتها التغيرات الاجتماعية والسياسية والتكنولوجية؛ بينما تظل محاولات معالجة مسألة الاختلاف الحاصلة على مدار ألف عام مضت قليلة، وغالبًا ما تبوء بالفشل والإحباط، زد على هذا أن مثل هذه الجهود دائمًا ما تفرق المسلمين فِرَقًا يختلفون فيما بينهم حول قضايا صغيرة فرعية إذا ما قُورنت بالمنظومة الكبرى.

وتتمثل الحقيقة المؤسفة في اهتمام المسلمين بالتفاصيل القليلة الصغرى التي يختلفون حولها بصورة تفوق اهتمامهم بأُسُس الدين الكبرى التي يتفقون عليها؛ أي القضايا بالغة الأهمية التي تتعلق بأمور الدين والدنيا، فمما يزيد الحيرة أنه مع ما يتعرض له المسلمون في تلك الأوقات من تجويع واغتصاب وتعذيب وذبح في فلسطين، والبوسنة، وأفغانستان، والشيشان، وكشمير، وبورما... وغيرها، يتناقش غيرهم من مسلمي أمريكا وإنجلترا حول وجوب الاصطفاف للصلاة بتسوية أطراف أصابع القدم، أم الكواحل، أم الأعقاب.

وقد يرجع هذا التركيز على القضايا الصغرى إلى نزوع البشر إلى الدقة؛ لكننا نقول مجددًا: إن ذلك الأمر قد يكون إحدى حبائل الشيطان من أجل صرف المسلمين عن أكثر القضايا أهمية فيما يتعلق بأمور دينهم ودنياهم، وأيا كان السبب، فإن التأثير مدمر، حيث يشتِّت هذا المسلم المخلص حديث العهد بالإسلام؛ فهو من ناحية قد اعتنق دين الإسلام بحثًا عن عالم يعمُّه السلام الروحي من خلال اليقين، ومن ناحية أخرى، يجد المسلمين يتجادلون؛ بل يتقاتلون -في أحايين كثيرة- حول اختلافات بسيطة، من الأفضل تقبلها وعدم المساس بها، بدلًا من الاحتفاء باتفاقهم على نهج واحد من الإيمان الصادق.

وبعد بيان ما قد سلف، نقول: إنه من الطبيعي أن يفترض المرء وجود إجابة صحيحة واحدة لكل سؤال، وأن يرغب كذلك في معالجة أي اختلافات تظهر على الساحة، قد يتأتى هذا في أحيان دون أخرى؛ لكنه، ولا شك، غير ضروري؛ وذلك لأن ثوابت الإسلام واضحة وقد **أجمع** عليها علماء السنة، كما أنه من الممكن التغاضي عن الخلاف حول الأمور الفرعية الصغرى، وذلك بمقتضى القاعدة الشرعية التي تنص على أن "النية هي مناط الحكم على الأعمال" (ففي الحديث الصحيح يقول النبي ﷺ: **"إنَّما الأعْمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى"**[18])، هذا بالإضافة إلى أن مثل هذه الاختلافات لا تحظى بأهمية بالغة.

والحقيقة أن السعي لإيجاد الحلول لقضايا الإسلام لا ينتهي دومًا إلى أحكام صحيحة ومتسقة، وهذا أمر مقبول، فالكمال ليس من صفات البشر، والعلماء أنفسهم معرضون للاختلاف في الرأي؛ بل للخطأ أحيانا، نعم! قد تَرِد الأخطاء؛ لكن عند حدوث الخطأ يضع الإسلام في الاعتبار الأهلية العلمية لمن صدر منه الخطأ، فالله ﷻ يتجاوز عن هَنَات العلماء، في حين أن صدور الخطأ من غير العلماء في أحد الأحكام الشرعية يضعهم في موضع العقاب؛ هذا لأن القضية ليست قاصرة على صحة الحكم من عدمه فحسب؛ بل مرهونة كذلك بمدى صحة **آلية** الوصول إلى مثل هذا الحكم من عدمها، فالعلماء مُكلَّفون -بما وُهِبوا من علم- بإصدار أحكام تتوافق وقدرَ علمهم، وعلى الجميع اتباع هذه الأحكام، وعلى الرغم من هذا، يقع اللوم على غير العلماء إذا أصدروا أحكامًا لا تتوافق ومستوى دُرْبَتِهم وعلمهم، وقد يستاء الغربيون -وهم الذين تربوا على مساءلة السلطات في كافة مستوياتها- من تلك المعادلة؛ ولكن تلك هي قواعد الإسلام فيما يخص العلم والعلماء.

ولا يلزم مما سبق أن المرء لا يمكنه أو لا ينبغي له التحقق من صحة الدليل الشرعي الذي استند إليه العالم في إصدار حكم معين، ليس الأمر كذلك، فهذه التساؤلات تؤخذ على الرحب والسعة، ما دام الطالب يبتغي بسؤاله المعرفة لا محاولة تحدي العالم أو تكذيبه، ويكون الجدال مقبولًا ممن يتمتعون بمكانة علمية مشابهة؛ لكنه إن صدر من أحد الطلاب فهو غير مقبول ولا يليق، وعليه، تعتبر مناقشة المرجعية أمرًا مقبولًا إن تحلى صاحب النقاش بالتواضع والأخلاق الحميدة؛ إذ الأعمالُ بالنيات، هذا على نحو ما بينا سالفًا.

ومع الوقت والدربة، سيرى حديث العهد بالإسلام بعين التقدير تلك القواعد بالغة الصرامة التي تحدد الأهلية العلمية في الإسلام، وتلك التي تزعج أولئك الذين تربوا في مؤسسات تعليمية تقوم

[18] البخاري (1)، ومسلم (1907).

على المعايير العلمية الغربية الرخوة نسبيًّا[19]، وما إن يدرك حديث العهد بالإسلام أو طالب العلم الشرعي البونَ الشاسع بين العلماء وبين غير العلماء في الإسلام، تتجلى له الحاجة إلى الخضوع إلى الشروط الحاكمة لأهلية العلماء، كما أن الشعور بالسلام والأمان واليسر المنبعث من اتباع ذلك العرف ليس غريبًا على حديثي العهد، فالكثير منهم قد اجتهدوا من أجل استعادة الشعور بالسلام الذي لازمهم في بداية دخولهم دين الإسلام، إنه السلام الذي يستشعره من يحيا حياة مبناها على الحق ويتبع الدين الحق، والأمان باتباع أحكام العلماء، واليُسْر في تطبيق دينٍ يقوم على أهلية علمية رصينة؛ فكل ذلك يتضح جليًّا لكل من أدرك يسر هذه السبيل، وتمامًا كما يتحمل العلماء مسؤولية أحكامهم، يتحمل طلاب العلم والعامة مسؤولية الالتزام بتعاليم العلماء، فيهنأ الناس ويرضون، وتطمئنُ نفوسهم لسيرهم على المنهج القويم. أما أولئك الذين يجنحون إلى استحداث آليات جديدة **للفقه** هم في الواقع يضعون أنفسهم في موضع الجدل والخلاف؛ إذ إن هذا الجهد العقيم الساعي إلى إعادة تعريف **الفقه** وفق أسس علمية قاصرة تفتقر إلى الأهلية، يعكر صفوَ سلام الطريق القويمة الآمنة ويُسرَها.

لكن ماذا لو وقع خطأ بالفعل؟ هذا السؤال يؤرق أفئدة المؤمنين وأذهانهم؛ إذ المؤمن الحق دائمًا ما يجتهد في تمحيص القضايا البسيطة بدافع السعي إلى بلوغ الكمال في الإيمان والعبادة؛ لكن الأمر يكمن في أنه إذا فعل الجميع ما يجب عليهم فعله، فلن يلام أحد، ويقر الإسلام بأن الله يجزي العالم إذا اجتهد ثم أخطأ أجرًا، ويجزيه إذا اجتهد ثم أصاب أجرين، وعليه، للعالم أجران إذا أصاب في الحكم، وأجر إذا أخطأ فيه؛ هذا لأنه تحمل مسؤولية إثبات أهلية العلم الذي خُصَّ به، أما العامة فيختلف مستوى مسؤوليتهم، ويُجزَوْن على الالتزام بواجبهم المتمثل في اتباع العلماء، وعليه، لا لوم على العامة إذا ما ساروا على هَدْي الأخطاء الخفية التي تصدر من العلماء؛ فهم لا يمتلكون أدوات العلم التي يختص بها أولئك العلماء، ومن ثم، إذا حدد العلماء أحكام **الفقه** حسب قدراتهم (دون توانٍ ودونما مجاوزة لحدود العلم)، وإذا سار العامة على هدي الفقه الذي أقره العلماء المعتبرون (إذ يتبعون أولئك العلماء الذين شهدوا لهم بغزير معرفتهم وبصدقهم، لا بالتحايل على الأمر باتباع الرأي الذي يميلون إليه، أنَّى كان الحق)، عندئذ تَصِحُّ الآلية التي يسير وَفْقَها الجميع، ولن يُلَام أحد، ولسوف يَهنَأ الجميع ويَسعَد ويأوي مطمئنا إلى ركن الإيمان والله.

---

[19] لتفصيل شروط الأهلية العلمية في الدين الإسلامي، انظر:

1) مبادئ الفقه الإسلامي، كتبه محمد هاشم كمالي، ونشرته جمعية النصوص الإسلامية، ص. 374-379 (فصل: شروط الاجتهاد)

2) دراسات في أصول الفقه، كتبه إياد هلال، ونشرته إسلاميك كلتشرال وركشوب (Islamic Cultural Workshop)، صندوق بريدي 1932، والنت، سي آي 91789، (909) 399-4708، الجزء 8.1 – شروط الاجتهاد، ص 103-105

يحدد هذان الكتابان الشروط التي يجب توافرها في **المجتهد** (عالم من علماء الدين الإسلامي متخصص في استنباط أحكام **الفقه**)، ومن أجل الشروع في فهم القائمة التي تضم الشروط الواردة، يُنصح القارئ بالاطلاع على:

1) مدخل إلى علوم القرآن، كتبه أبو عمار ياسر قادحي، ونشرته الهداية للنشر.

2) ستديز إن حديث ميثودولوجي آند ليتيريتشر، كتبه محمد مصطفى عزمي، ونشرته أمريكات ترست بابليكيشنز (*Studies in Hadith Methodology and Literature*, by Muhammad Mustafa Azami, American Trust Publications).

3) *حديث ليتيريتشر: إتس أوريجينز، ديفيلوبمنت آند سبيشال فيتشرز*، كتبه محمد زبير صديقي، نشرته إسلاميك تكستس سوسايتي (*Hadith Literature: Its Origins, Development and Special Features*, by Muhammad Zubayr Siddiqi, Islamic Texts Society).

ملحوظة: ليس على القارئ دراسة هذه الكتب السابقة دراسة متعمقة، بل عليه الانغماس في محتواها إلى الحد الذي يؤدي بالعقل إلى الشروع في التساؤل ومن ثم الدخول في دوامة التعقيدات؛ فعند هذا الحد يحصل التواضع، ومن ثم نصل إلى النتيجة المرجوة المؤدية إلى إخفات صوت النزوع إلى إصدار الأحكام الشخصية في أمور **الفقه**، ممزوجة بإجلال أولئك الرجال الأفذاذ الذين وصلوا مرتبة الاجتهاد.

لم لا يسير الأمر على هذا النحو إذن؟

هذا لأنه إذا أتينا إلى مجال **الفقه**، وجدنا خلافًا وتعصبًا دينيًّا حماسيًّا شديدًا، وربما كان التشدد وعدم المرونة أمرًا حسنًا فيما يتعلق بأمور **العقيدة** التي لا تقبل الخلاف سوى في نطاق محدود أو ربما لا تقبله بالمرة؛ لكن الاختلاف في **الفقه** أمر معروف ومقبول ومعتبر منذ زمن العلماء الأوائل؛ وأما المسلمون الذين لا يتقبلون الاختلاف فيشنون حربًا ضروسًا ضد سلسلة الألف عام هذه التي تميزت برحابة الأفق العلمي، هذا رغم وجود أحكام الفقه التي لا تعتمد الجزم في الأمور، ودائمًا ما يميل هؤلاء المسلمون إلى الشجار والصخب والتعصب والقسوة والجمود، ويكثر انغماسهم في قلب أي خلاف؛ إذ يعبرون عن أشد الآراء بأعلى الأصوات، وعن علم قليل وأخلاق متدنية، ومما يسوء أن نسبتهم غالبة في الأمريكتين وإنجلترا وأوروبا الغربية، لدرجة أنهم موجودون تقريبًا في كل مساجد الغرب، ويجب الحذر من مثل أولئك الأفراد، والتحذير منهم؛ بل تجنبهم إذا اقتضى الأمر، وأحيانا ما يهدأون ويلينون بمرور الوقت، وأحيانًا لا يكونون كذلك. يا لها من حرب ضروس محبطة غير مجدية على الدوام! لكننا نأمل أن ينصت هؤلاء إلى أفضل النصائح؛ إذ ينصح العبد الصالح لقمان ابنه نصيحة سجلها القرآن الكريم إذ يقول:

{يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ(17) وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} (لقمان: 17-19).

زد على ذلك أنه من بين الأمور التي يغالبها حديث العهد بالإسلام الحفاظ على شيء من السلام الداخلي، وهو أمر يصعب تحقيقه إذا شتَّتَتْه الآراء العلمية المتعارضة عن تعلم أساسيات أمور الإيمان والعبادات، ومع هذا فإني أهمس في الأُذن ناصحًا بأن الإسلام دين الوسطية، وما إن يبحث المرء عن طريقها بإخلاص، يجدها في الغالب، وتتمثل الطريق المعتدلة في الوسطية التي قالت عنها الأجيال السالفة حكمة مفادها: "عليكم بالاعتدال في كل شيء، فإن خير الأمور أوسطها". ونظرًا لأنها حكمة تخص الإسلام، فمن النادر الوقوف على مقابل لها في الحِكَم الغربية، وإذا أراد المهتدون إلى الإسلام الوقوف على الصراط القويم المعتدل، فإني أنصحهم بالبحث عن المسلمين الهادئين المخبتين الذين يمارسون الدين وهم يتجنبون بحكمة تلك الجماعات الإسلامية التي يميل أفرادها إلى الصخب والخلاف. ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نورد مُفتَتَح قصيدة ديزيديراتا (Desiderata):

"سِرْ في هدوءٍ في الزحامِ ووسْط تيارِ التسارُع

واذكرْ سلامًا قد يعمُّك في الهدوء!

وثِّقْ صِلاتك بالجميعِ

إن استطعت بلا خضوع!

قل ما تُصدِّق في هدوءٍ وصراحة

أنصت كذلك للجميعِ؛ للحمقى وللجهلاء أيضًا

فلكل إنسان حياة!

وانأ بنفسكِ عن الصَّخَّاب والشَّرسِ

فإنهما للروحِ سُمٌّ يا صديق!"

على الجانب الآخر، فإن مصاحبة العلماء تغذي الروح وتؤنسها، ولسوف تهتدي إليهم في حلقات العلم، ولتعرفنهم بأخلاقهم الحميدة ومشاعرهم النبيلة؛ ففي أكنافهم وعلى هَديِهم يعمُّ السلام والأمن.

2- ب) العلماء والفقه (الشريعة الإسلامية)

قلنا من قبل إن كافة الجماعات التي ترفع شعار الإسلام -سواء كان على أسس قويمة أم منحرفة أم حتى بعيدة كل البعد عن الدين- تقر باتباع القرآن والسنة حسب تفسير "**العلماء**" لهما، وقد تبدو لفظة "**العلماء**" غريبة وذات سطوة بحيث يمكن أن ينخدع المرء بسهولة بالعبارة القائلة: "يرى **علماء** الإسلام أن..."، أو: "يقول **علماء** الإسلام: إن..."؛ لكن ما حقيقة لفظة "**العلماء**" -الفضفاضة- الذين يتعين على الجميع اتباعهم؟ من الواضح أن العديد من الجماعات يتبنون آراءً متنوعة حول مجموعة العلماء الثقات أو الزائفين التي تشكِّل تصورهم عن صفة "**العلماء**"؛ إذن، كيف يتمكَّن الداخل في الإسلام من معرفة العلماء الثقات، ومن استنباط الأحكام من القضايا التي اختلفوا فيها؟

بادئ ذي بدء، ينبغي للمرء أن يعي أن الاختلافات العلمية المتعلقة بالأمور الفرعية في **الفقه** الإسلامي معتبرة ومقبولة، ومن ناحية أخرى، يجب اعتماد القضايا التي **أجمع** عليها العلماء بلا نقاش، وعليه، تتوافر مساحة للبحث والنقاش المهذبين **في أوساط طلاب العلم والعلماء** حول القضايا محل الخلاف العلمي؛ لكن لا تتوافر إلا مساحة صغرى -أو لا تتوافر البتة- عند نقاش قضايا قد **أجمع** العلماء عليها، سواء صدر ذلك الإجماع عن أئمة المذاهب الأربعة[20] (والمذهب مدرسة فكرية في التشريع)، أم بين أوساط العلماء المتأخرين على مدار التاريخ الإسلامي، أضف إلى ذلك أنه يجب البعد عن أولئك الذين يتصدون لقضايا **الفقه** دون امتلاك العلم الكافي أو المهارة الكافية مهما كلف الأمر؛ فهذا مجال العلماء المؤهَّلين، المؤهَّلَين وحدهم، وفي هذا يقول الله ﷻ:

{وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا} (النساء: 83).

إذن، على المسلمين أولًا أن يكفوا عن المخاطرة بنجاتهم لحساب آراء أناس غير مؤهلين، قد يقترب ضلالهم من ضلال الشيطان نفسه، وعليهم بعد ذلك أن ينتهوا عن الشجار حول القضايا الصغرى الفرعية التي لم يُجمع عليها أهل العلم الثقات على مدار 1400 عام، والتي لا تتمتع بأهمية بالغة على أي حال، فعلى سبيل المثال، لقضايا **العقيدة** أهمية بالغة تفوق أهمية الهيئة التي تكون عليها أيدي المصلين وأقدامهم في الصلاة، وعلى نحو مماثل، عليهم التوقف عن الخوض في القضايا -الصغرى والكبرى- التي أجمع عليها العلماء بالاتفاق منذ 1400 عام؛ لأنه إن لم يتمتع المرء بمكانة علمية تُمكِّنُه من مُحَاجَّة العلماء المتقدمين العظماء، فواقع الأمر أن هذه القضايا قد حسمت وقُتلَت بحثًا.

على المسلمين بعد ذلك أن يدركوا أن هناك جوانبَ عملية للتعامل مع العلوم الشرعية، ومن اللازم توجيه حديثي العهد بالإسلام إلى الطريق القويمة في وقت مبكر قدر المستطاع حتى يطمئنوا، والأهم من ذلك حتى لا ينأى بهم الخلاف الدائر المتواصل بعيدًا عن حظيرة الدين. ويُعد

---

[20] يتبع معظم المسلمين في العالم أحد المذاهب الأربعة (وهي المذهب الشافعي، والحنفي، والحنبلي، والمالكي؛ وقد سُمِّيَت بأسماء أئمتها الذين رسخوا بتأويلاتهم لأدلة الدين أساسَ كلٍّ من هذه المذاهب).

الإفراط في أمور الدين متلازمة يعاني منها حديث العهد بالدين بصورة شائعة، وتنجم عن اللبس الناتج عن مواجهة العديد من وجهات النظر العنيفة المتضاربة، كما أن التحولات الجذرية من منحًى فكري إلى آخر -مع دوام قطع سبيل الوسطية المستقيم المعتدل بمنحنيات كبرى متواصلة خارجة عن السيطرة وجانحة جنوحًا كبيرًا عن الطريق- تشكل أمرًا مفزعًا ومحيرًا؛ بل وغير منصف في نظر حديثي الإسلام، ففي حين أن أولئك المسلمين الجدد قد يعانون في بداية الأمر من الحيرة والخوف من العجز عن الوصول إلى طريق الرشاد الآمن الواضح، فقد يتأثر المقربون منهم (أصدقاؤهم المعنيون وأسرهم على وجه التحديد، أولئك الذين يأمل المسلم الجديد في دعوتهم إلى الإسلام) تأثرًا سلبيًّا بملاحظة هذه المنحنيات العنيفة المتذبذبة على صعيد الفكر والممارسة التي تلازم حديث العهد بالإسلام. قد يتمكن المسلمون الجدد مع الوقت من الإمساك بزمام الأمور ووضع حدٍّ لتلك المنعطفات؛ لكن كثيرًا منهم لا يقوى على ذلك، وربما يؤدي العجز عن السير على جادة الصواب بالبعض إلى ترك الدين بالكلية.

في غالب الأحوال لا تكون **العقيدة** هي مثار الحيرة لدى حديث العهد بالإسلام؛ فسلامة **العقيدة** دائمًا ما تكون هي سبب دخوله إلى الدين في المقام الأول، فمعظم حديثي العهد بالإسلام قد اعتنقوا الإسلام بسبب الاهتداء إلى أن تعاليم القرآن اليسيرة المتعلقة بأمور **العقيدة** و**التوحيد** تتوافق والعقيدةَ التي فُطروا عليها، ولم تصبح الاختلافات في أمور **العقيدة** محل دراسة إلا لاحقًا، هذا على نحو ما سنبين فيما يلي.

ومع هذا، فإن الاختلافات الكائنة في أمور **الفقه** عادة ما تكون سببًا رئيسًا في الحيرة، فعادة ما يجد المسلم الجديد عند أدائه للصلاة أول مرة أن هناك من يأمره بالاصطفاف بتسوية أطراف أصابع القدم، ووضع يديه على نحو معين، ووضع الإصبع بطريقة ما عند الجلوس، والجلوس على النحو الفلاني... إلى آخره. وقد يلاحظ شخص حسن النية من الإخوة أو الأخوات هذا المصلي في اليوم التالي ويوجهه بالاصطفاف بتسوية الأعقاب أو الكواحل، وبالإمساك باليدين على نحو آخر، وبتحريك الإصبع في التشهد بدلًا من تثبيته... إلى آخره من الأمور. وعليه، وبعد محاولات عدة من الإخوة أو الأخوات حِسان النية لطرق أبواب الأمور الفقهية الفرعية -بل الخلافية- يملُّ بعض المسلمين الجدد ويستسلمون، تاركين حسان النية أولئك -بل المشوشين- حيارى لا يعلمون وجه الخطأ فيما فعلوا، في حين أنهم في الحقيقة هم من أصابوا المسلم الجديد باللبس والحيرة، وأثقلوا كاهله بأمور متعارضة، فهَجَرَ المسجد.

إذن، ما هي آمَنُ وأفضل طريقة يتعلم بها المسلمون دين الإسلام ويمارسونه؟ تتنوع الإجابة على هذا السؤال من "عالِم" إلى آخر؛ لكنها -ولحسن الحظ- تشتمل على قليل من الخيارات؛ بداية، عادة ما يَنصح كثير من العلماء والفقهاء بالاطلاع على كتب معاصرة في الفقه الإسلامي؛ مثل كتاب "فقه السنة" للمؤلف سيد سابق، وبعض الرسائل المختصرة لناصر الدين الألباني وآخرين، والدراسة الذاتية لمصنفات الحديث والتفسير، ويميل غيرهم من العلماء إلى توجيه المسلمين الجدد إلى الاطلاع على أمهات الكتب في أحد المذاهب الأربعة، ويعد كتاب النووي "المقاصد"، وكتاب "عمدة السالك"، وقد ترجمهما نوح حاميم كلر (Nuh Ha Mim Keller)، أفضل ما وقع تحت يدي **المؤلف** من كُتب تُرجمَت عن **الفقه** الشافعي إلى اللغة الإنجليزية، رغم أنهما يُظهران العَوَارَ المؤسف الناتج عن تشبث المترجم كثيرًا **بالعقيدتين** الصوفية والأشعرية.

ورغم هذا، فإن هناك مؤيدين ومعارضين لكل ما أوردناه من كتب، وعلى كل فرد أن يدرس الآراء المتعددة ليقرر أيها يتبع. يسير الأمر على هذا النحو في البداية، ولا عجب من أن كثيرًا ممن يسلكون في البداية أحد دروب الدراسة ينتهي بهم الحال إلى الانجذاب إلى درب آخر، وهذه عملية صحية، فلن يتمكن الناس من تقرير السبيل إلا بعد تقييم جميع الخيارات؛ بل إني لأرى أن جل التذبذب والحيرة الحادثين بين المدارس الفكرية نابع من إساءة فهم أدوار المذاهب وما يُعرف في أيامنا هذه بالحركة السلفية، ويرى كثيرون تعارضًا بين هاتين المدرستين، ويبدو هذا صحيحًا في الظاهر؛ لكن إذا تفحص المسلمون الأمر سيعلمون أن هاتين المدرستين الفكريتين متكاملتان في حقيقة أمرهما؛ فلقد تفتقت المذاهب في الأصل من رحم مدارس **الفقه**، بينما تعرف الحركة السلفية بأنها إحدى حركات الإصلاح الديني، وتركز إصلاحات السلفية بالأساس على تصحيح الأخطاء التي زُرعت لإفساد **الأمة** المسلمة على وجه العموم، وإفساد النظام المذهبي على وجه الخصوص، وتتمثل قضاياها الأساسية في الآتي:

1) أخطاء **العقيدة** التي جرى ترسيخها في المذاهب من خلال التبني المؤسف **للعقيدتين** الأشعرية والماتُريدية.

2) الممارسات الصوفية التي لم تعد متعصبة متطرفة فحسب؛ بل صارت لصيقة على نحو شديد جلي بالمذاهب التي تلت عصر أبي حامد محمد الغزالي (1058-1111 من الميلاد).

3) إحجام علماء المذهب عن العدول عن **فقه** مذهبهم إذا ما تعارض مع أحد الأحاديث، رغم أنه من الواجب شرعًا طرح آراء المذهب جانبًا عند وجود دليل معارض من الحديث الصحيح[21].

4) **التقليد** أو الاتباع الأعمى من قِبَل أتباع المذهب.

5) تسلل العادات التي لا صلة لها بالإسلام -بما في ذلك العادات التي تعود إلى الجاهلية- إلى الممارسات الدينية.

لم تكن الحركة السلفية في أصلها -ولن تكون- حركة **فقهية**، وإنما ينطبق ذلك الوصف على المذاهب في حقيقتها العملية، ولذا فإن كلتا المدرستين تدعم وتكمل إحداهما الأخرى، ويشكل **فقه** المذاهب الأساس الذي يقوم عليه البحث **الفقهي** الحديث بصورة كبرى، في حين تحدد العقيدة

---

[21] تتبنى المذاهب الأربعة بنية حيوية تسمح بتعديل **الفقه** المتطور إذا ما جَدَّ في العلم جديد، ومع هذا، تفتقر هذه التغيرات إلى أدلة، ومن ثم يصعب على المرء أن يجد مثل هذه التغيرات ضمن أي من المذاهب الكبرى، نظرًا لوجود ما يرى فيه الكثيرون أنه دليل قاطع، وينطبق هذا على الأقوال الآتية لأئمة المذاهب الفقهية الأربعة:

1. أبو حنيفة، إذ يقول: "إذا صح الحديث فهو مذهبي" (ابن عابدين، *الحاشية*، ص 63/1، ويقول: "إذا قلت قولًا يخالف كتاب الله تعالى وخبر رسوله فاتركوا قولي" (الفلاني، إيقاظ الهمم، ص 50).

2. مالك، إذ يقول: "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه" (ابن عبد البر، الجامع، ص 32/2).

3. الشافعي، إذ يقول: "إذا صح الحديث فهو مذهبي" (النووي، *المجموع*، ص 136/1)، ويقول: "كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله عند أهل النقل بخلاف ما قلت فأنا راجع عنها في حياتي وبعد مماتي" (أبو نعيم، *الحلية*، ص 107/9)، ويقول أيضا: "كل حديث عن النبي فهو قولي، وإن لم تسمعوه منى" (ابن أبي حاتم، أدب الشافعي، ص 93-94)، ويقول كذلك: "أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس" (الفلاني، إيقاظ الهمم، ص 68).

4. أحمد بن حنبل، إذ يقول: "لا تقلدني، ولا تقلد مالكًا، ولا الشافعي، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا" (الفلاني، إيقاظ الهمم، ص 113).

السلفية وتصحح تلك الأخطاء التي تتسرب خفية عبر القرون إلى عقائد المسلمين -الذين يتبع معظمهم أحد المذاهب الفقهية الأربعة- وعباداتهم، ومن ثم، كانت عملية تغلغل العقيدة الصوفية و**العقيدة** الأشعرية أو الماتُريدية كاملة شاملة في جسد المذهب، حتى بدت الآن وكأنها جزء لا يتجزَّأ من هذه المذاهب، وليس هذا ما كان عليه فكر الأصول، وعلى العالَم الإسلامي الامتنان للسلفية على إدراكها هذه الحقيقة وإظهارها.

وبناء على ما قيل، يصبح من الممكن للمرء أن يدرك السبب الذي لأجله دائمًا يسود الظن بوجود خلاف بين الحركة السلفية والمذاهب الفقهية، ورغم أن هذا في حقيقته أمر غير صحيح، فإن الواقع العملي يُظهِر أن معتنقي هذه المذاهب الفكرية المختلفة يعجزون على الدوام عن الفصل بين هذه القضايا؛ فكثير من **السلفيين** قليلي العلم يرفضون بصورة تلقائية الأخذ **بفقه** المذاهب، فيخلطون بذلك الحابل بالنابل؛ إذ لا يفرقون بين أهمية **فقه** المذاهب وبين الانحرافات الحاصلة في أمور العقائد والعبادات تلك التي تلبَّست بها المذاهب على مر الزمن، كما يَعتبِر بعض السلفيين -من قبيل الخطأ- الفروقَ الكائنة في أمور الفقه قضيةً أساسية، في حين تتمثل القضايا الأساسية في حقيقة الأمر في النقاط التي أوردناها من قبل. وعلى الصعيد الآخر، فإن أتباع المذاهب الفقهية يضمرون الكراهية للسلفيين بسبب تعارض المعتقد السلفي مع **عقيدتهم** ومع الصوفية التي يرونها متممة لمذهبهم، وهذه الكراهية أمر لا شك فيه، وفي تلك الأمور ينبغي للمرء أن يتخذ موقفا واضحا: إما مع أو ضد الصوفية، وإما مع أو ضد **العقيدة** الأشعرية أو **العقيدة** الماتريدية... إلى آخره، إذن، دعونا نقر بأن الهدف لا يتمثل في مواجهة **فقه** المذاهب بقدر ما يكمن في مواجهة أخطاء **العقيدة**، وانحرافات الصوفية، وجمود **الفقه**، والاتباع الأعمى من قِبَل أتباع المذهب، وتبنِّي الممارسات التي لا تَمُتُّ للإسلام بصلة.

نخلص من ذلك بأن المسلمين المعتدلين يتوسطون طرفي النقيض دائمًا؛ مستخلصين أفضل ما في الفريقين؛ أي -وكما يرى كاتب هذا الكتاب- مستخلصين مناقب **فقه** المذاهب من ناحية، ومزايا الإصلاحات السلفية من ناحية أخرى.

ولا يعد هذا الرأي بِدْعًا من الآراء؛ فلقد بدأ جميع العلماء الذين أحيوا العقيدة السلفية (ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، ومحمد بن عبد الوهاب طريق دراستهم أتباعًا لأحد هذه المذاهب المعتمدة، منغمسين في طريق هذه الدراسة، غير ساعين إلى هدم أي من مدارس **الفقه** تلك؛ ولكنهم سعوا إلى إحياء المذاهب، مع إصلاح كيفية الاتباع، زد على هذا أنه لم يَدَّعِ أي منهم تأسيس مذهب **فقهي**، رغم تمكنهم -بما يتوافر لديهم من صيت وإنجاز علمي- من فعل ذلك إن كانوا يرونه صحيحًا، والحق أن الغالبية العظمى من المسلمين -عامة وعلماء على السواء (بما فيهم علماء السلفية)- سارت وفق أحد المذاهب الفقهية الأربعة المُقرَّرَة في كل فترة من فترات التاريخ على مدار الألفية السالفة.

على هدي ما سبق، ونظرًا لاجتماع الغالبية العظمى من المسلمين على آلية اتباع فقه المذاهب لما يربو على ألف عام، نذكر قول محمد ﷺ في أحد الأحاديث: **"لا تجتَمِعُ أمَّتي على ضَلالةٍ"**[22].

---

[22] الترمذي (2167)، وابن ماجه (3950)، وأحمد (17060).

ويرى بعض العلماء (من علماء المذاهب غالبًا) أن اتباع المذهب فرض على العامة، في حين يرى آخرون (علماء الحركة السلفية في العادة) غير ذلك، ومهما يكن الرأي الذي يؤمن به المرء، يحسن بنا ملاحظة أن جميع العلماء تقريبًا -بغض النظر عن المدرسة الفكرية التي ينتمون إليها- يدركون تميُّز **فقه** المذاهب الأربعة ويُجلُّونَه.

وبالمثل فإن الحركة السلفية تتمتع بالعديد من المزايا الجلية، في البداية، إذا عُرف عن المسلك السلفي اقتداؤه بالسلف الصالح وبخير مَن مثَّل الإسلام، أي صحابة محمد ﷺ (فإلى كلمة "**السلف**" يرجع اسمهم)، عندئذ ألا يحق لكل مسلم أن يتطلع إلى هذا الإنجاز؟ فأي المسلمين لا يود اقتفاء أثر **السلف**؟ ثانيًا، إذا عُرف عن الحركة السلفية ميلها إلى تصحيح الانحرافات سالفة الذكر، أفلا ينبغي على كل مسلم التطلع إلى الانتساب إليها؟ إذن، تَكمُن المشكلة في أنه لا توجد في أمور **الفقه** مجموعة متفق عليها من التعاليم التي يمكن وصفها **بفقه** الحركة السلفية، فهناك العديد من الكتب والدراسات، بعضها موجز في كتيبات وبعضها الآخر مبسوط في مجلدات مثل (مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية) وفتاويه تعد تتمة لمجموعة أدبيات **الفقه**، ونظرًا لأن العديد من هذه الكتب والدراسات مترجم إلى اللغة الإنجليزية، فقد صارت متوفرة بأحجام مناسبة وتقدم محتوى مفيدًا للغاية. ومع هذا، ليس من الوجيه القول بإمكانية أن تحل هذه الكتب محل **فقه** المذاهب الأربعة، كما أنه -هذا القول- سبب في كثير من الخلاف والانقسام الدائرين في أوساط من يتصدَّوْن لهذه القضايا.

يحظى كل من المذاهب والجماعات السلفية إذن بممارسة عملية فائقة إذا ما أمكن التعرف على مواطن القوة والقيود التي تحكمها، ولا شك أن هناك من يقف على الأطراف رافضًا أي مذهب مغاير لمذهبه رفضًا تامًّا، ولكن المسلم المعتدل يسعى إلى الوسطية الواقعة بين حدود تلك الأطراف، ويعلم مواطن الخير في **فقه** المذاهب وفي حركة الإصلاحات السلفية أيضًا، وهذا ما كان عليه كثير من علماء السلفية؛ فقد اتبعوا تعاليم السلفية فيما يخص أمور **العقيدة** وتزكية النفس (بالتوازي مع رفضهم للتعاليم النابعة من المذهبين الأشعري والماتريدي في أمور **العقيدة**، وتلك النابعة من الصوفية فيما يخص تزكية النفس، إعلاءً للأحكام الصافية التي أقرها القرآن والسنة والقرون الثلاثة الأُوَل من السلف الصالح)، واتبعوا أيضًا مذهبًا من المذاهب **فيما يختص بأمور الفقه** (مع الانتباه لوجوب إعلاء الأدلة الشرعية فوق آراء أي مذهب إذا كان هناك تعارُض بينهما، ومن ثم تجنُّب خطأ الاتباع الأعمى).

وإذا عدنا إلى موضوع كتب **الفقه**، وجدنا أن كتاب "فقه السنة" للكاتب سيد سابق يلقى قبولًا واسعًا (في مصر على وجه الخصوص)، كما أنه المُنطَلَق الشائع الذي يبدأ منه العديد من المسلمين الجدد رحلتهم المعرفية؛ لكنه لم يُترجم كاملًا إلى الإنجليزية، مما يزعج الكثيرين الذين يحتاجون لمعرفة التفاصيل، هذا بالإضافة إلى تشكيك البعض في أهلية المؤلف، وتلك نقطة جدلية.

وقد سبق القول: إن أفضل الكتب المعتبرة التي تجمع بين شمول المعرفة وبراعة الترجمة على مستوى المذاهب إلى يومنا هذا كتابَا نوح حاميم كلر (Nuh Ha Mim Keller): "المقاصد" (*An-Nawawi's Manual of Islam*)، و"عمدة السالك" (*Reliance of the Traveler*)، ورغم هذا النقد الوجيه الذي يناله نوح كلر لاتصاله بالصوفية وترويجه **للعقيدة** الأشعرية،

بالإضافة إلى بعض التعليقات المخالفة التي سجلها في ترجماته، فإن كتبه تلقى قبولًا واسعًا نظرًا لدقة الترجمة، ومن الجيد أنه يُصدِّر تعليقاتِه بحرف الـ"ن" (مشيرًا إلى المترجم)؛ فمن المهم أن يتمكن القارئ من التفرقة بين الترجمة بمحتواها القيم، وبين تعليقات كلر التي لا تعد كذلك، أما انتقاده لشيخ الإسلام ابن تيمية على وجه الخصوص؛ فهو أمر متوقع نظرًا لخلاف ابن تيمية مع العديد من مذاهب **العقيدة** والصوفية التي ينتمي إليها كلر، فملاحظات كلر بشأن الصوفية **والعقيدة** متوقعة إذن وتَشِفُّ عن تحيُّزه في هذين الأمرين.

والنقاش الدائر حول تأييد المذاهب أو رفضها، وحول المقارنة بين العقيدة السلفية **والعقيدة** الأشعرية أو الماتريدية، وحول سيد سابق ونوح كلر، وكذلك حول تأييد المنهج الساعي إلى إعادة استنباط أحكام **الفقه** باللجوء إلى التأويلات الشخصية للقرآن والحديث أو رفضه (وهو نظام يرى العلماء أن القول فيه يكون للعلماء؛ للعلماء وحدهم) نقاش مستفيض، ومن الممكن الاطلاع عليه من خلال المكتبات الإسلامية والمواقع الإلكترونية، ولفائدة القارئ، نقول: إنه من بين أبرع الأطروحات التي تناولت المذاهب تلك المقالة القصيرة للكاتب عبد الحكيم مراد (Abdul Hakim Murad، a.k.a. ‘Abdul Hakim Winter, a.k.a. T. J. Winter’) تحت عنوان (*Understanding The Four Madhhabs*)، وهو كاتب بليغ رغم أن شخصه مثير للجدل في حد ذاته، والمقالة متوفرة من خلال المكتبات الإسلامية، وكذا المواقع الإلكترونية.

3) الممارسة العملية

بمجرد أن يدخل المرء دين الإسلام بإعلان **الشهادتين**، تجب عليه أركان الإسلام، على نحو ما بينا سالفًا، وعليه، فإن العلم بهذه الأركان وممارستها ركنان ركينان يقوم عليهما دين المرء، ومما ييسر ذلك الأمر اختيار المسلم الجديد أحد المذاهب **الفقهية** من مذاهب أهل السنة واتِّباعه[23]، وإن اختار المرء سبيل المذاهب الفقهية، فعليه أن يدرك أن القاعدة العامة تنص على عدم تفضيل أي من المذاهب على غيره؛ بل تعتبر المذاهب الأربعة جميعها على نفس القدر من الجودة، وللمسلم أن يتبع أكثرها ملاءمة لحاله، وبالنسبة إلى مسلمي أمريكا وإنجلترا، يبدو المذهب الشافعي أكثر سهولة في التعلم؛ لا لشيء إلا لأن كتب المذاهب الأخرى لم تترجَم إلى اللغة الإنجليزية بنفس الجودة[24].

بوجه عام، تحظى الكتب التي تروِّج لها جماعة "السلفية" أو "القرآن والسنة" بأهمية بالغة؛ فدائما ما يكون مضمونها مفيدًا، وحجمها مناسبًا، وأهليتها العلمية رصينة؛ في حين أن هناك العديد من الكتب الأخرى التي تقوم على أسس علمية واهية وتعكس آراء كُتَّابِها أكثر من عنايتها بفهم أقوال **العلماء**، ومن هنا يجب على المرء أن يثق بهَدْي الله، وباقتراحات ذوي الأفهام من إخوانه وأخواته في الإيمان، مع التحلي بالعقلية الانتقائية الناقدة.

وعلى صعيد آخر، يميل كثير من المسلمين الجدد إلى الاهتداء بآراء **الأئمة** أو الشيوخ في الجوار؛ أي عادة ما يتبعون **إمام** مسجدهم الذي يصلون فيه، فالركون إلى أشخاص بعينهم ليس بالخيار السديد؛ وقد يكون مجديًا أو غير مجدٍ؛ فمعظم الأئمة في الغرب يفتقرون إلى الأهلية العلمية، وكثير منهم فاسد، وكثير منهم مُضِل؛ سواء كان ذلك عن علم أو جهل، وعلى حديث العهد بالإسلام التنبه لهذا والاستمساك بآراء العلماء المتقدمين المعتبرين الذين يَشهد لهم سجلهم الحافل بالاستقامة والتميز.

ومن بين الأخطاء الشائعة الفادحة أن يثق المرء بآراء أولئك المسلمين "بالوراثة"، أحدهم أو جميعهم؛ أولئك الذي وُلدوا في ديار الإسلام، فدائمًا ما يكون المسلمون "بالوراثة" في الغرب أسوأ ممثلين **للإسلام، وهو بلا شك أمر صادم للمسلمين الجدد**، فالحق أن هؤلاء المسلمين دائمًا ما يشوهون الإسلام، فبدلًا من أن يمدوا يد العون للمسلمين الجدد، تراهم يحيلون حياتهم في الإسلام إلى حياة تملؤها الحيرة والمشقة، ولا ينطبق هذا -من دون شك- على الجميع؛ لكنه أمر جدير بالذكر لاستفاضته وانتشاره.

وقد ترجع عدم أهلية المسلمين "بالوراثة " لأن يكونوا مثالًا يحتذى إلى عدة أمور، لعل من أبرزها هجرة الكثير منهم إلى الغرب رغبة في تحقيق أهداف لا علاقة بها بالدين، دعونا نقول بوضوح: إن كثيرًا من المسلمين " بالوراثة" **يهاجرون** من ديار المسلمين إلى ديار غير المسلمين بحثًا عن **الدنيا** (متاع الحياة) مؤثرين **الدنيا** على الدين، ومخاطرين به؛ لضمان حصولهم على ما يطمحون، أمثال هؤلاء لن يكونوا ممن يمثل الإسلام خير تمثيل، والحق أن كثيرًا منهم قد هجروا دين الإسلام عند خروجهم من حدود بلادهم، هذا إن كانوا قبلها ملتزمين بالدين من الأساس، وهو

---

[23] دون اتباع أعمى، ودون تطرُّف.
[24] انظر كتب **الفقه** الشافعي سالفة الذكر؛ تلك التي ترجمها نوح حاميم كلر (Nuh Ha Mim Keller).

حال أغلبهم؛ لكن نقول من باب الإنصاف: إن بعضَ هؤلاء الناس يواجهون صعوبة في سعيهم للعودة إلى حظيرة الدين، وهناك نسبة جيدة منهم بالفعل على درجة من الدين تَفضُل أولئك الذين تَركوهم خلفهم في بلادهم، وهناك أيضًا الكثير من المسلمين الصادقين الذين يقصدون بهجرتهم أمريكا، وإنجلترا، وأوروبا هربًا من الاضطهاد الذي يلاقونه في بلادهم، فهم أفضل من يطبق الإسلام في بلاد تضطهد من يطبقونه، وعليه، يتنوع خليط المسلمين "بالوراثة" حقًّا، فيضم أطيافًا عدة من الصور الدينية التي تحوي الأسوأ والأفضل على حد سواء.

على المسلمين الجدد إذن ألا يظنوا أن أفراد تلك الفئة من المسلمين مُنزَّهون أو أنهم كالملائكة، فهم ليسوا إلا أقلية صغرى مشتتة قد أتت من كل حدَب وصوب.

وبالمثل، ينبغي لحديث العهد بالإسلام أن يكون مهيأً لمواجهة قدرٍ من المشقة عند دخوله الإسلام، وأنه من المتوقع أن يُبتلَى في عقيدته، وأن هذه الابتلاءات دائمًا وأبدًا ما تنطوي على اختبار لحديث العهد بالدين؛ لبيان ما إن كان سيُعلِي شأن الدنيا على الإسلام أم لا، وسواء تعلق الابتلاء بالصحة، أو المال، أو الزوج، أو الأولاد، أو أي من الأمور، فعلى حديث العهد بالدين الإيمانُ بأن البلاء أمر محتمل الحدوث؛ إذ المشقة هي الاختبار لمدى الإخلاص، ربما ينجح البعض في هذا الامتحان ويرسب البعض الآخر، وتحصد هذه الابتلاءاتُ في نهاية المطاف رقابَ أولئك المنافقين من بين زَرْع المؤمنين الصادقين المخلصين الصالح.

ومن المبشر أنه ما من أذى يصيب المؤمن في طريقه إلى الله إلا ويأتيه العوض من الله، سواء كان ذلك في الدنيا أم في الآخرة، ويضاعفه له أضعافًا كثيرة نظير ما هجر في سبيل نيل رضا الله، ومن ثم، وكما نصح محمد ﷺ أولئك الداخلين في الدين حديثًا في زمانه، يجب أن يُنصَح من يعتنق الإسلام اليوم بتوقُّع ملاقاة المشقة، ومن ثم بالاستعداد لها، فكما قال محمد ﷺ: "**إذا أحبَّ اللهُ تعالَى عبدًا ابتلاه**"[25]، فإذا ما انقضى البلاء ومرت المحن، فإن ثواب الله ينتظر العبد جزاءً بما صبر وثبت على طريق الحق؛ ويصدِّق ذلك قولُ محمد ﷺ:

> **"ما مِن شيءٍ يُصِيبُ المُؤْمِنَ، حتَّى الشَّوْكَةَ تُصِيبُهُ، إلَّا كَتَبَ اللَّهُ له بها حَسَنَةً، أوْ حُطَّتْ عنْه بها خَطِيئَةٌ"**[26].

وقوله كذلك:

> **"ما يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِن وصَبٍ، ولا نَصَبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ، حتَّى الهَمِّ يُهَمُّهُ؛ إلَّا كُفِّرَ به مِن سَيِّئاتِهِ"**[27].

ومن لم يكفه هذا، فليراجع أحكام الإسلام التي تقضي بأن جزاء الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف بقدرة الله -عز وجل- على نحو ما جاء في الحديث:

---

[25] البخاري (5321)، ومالك (1684)، وأحمد (7234).
[26] البخاري (5317)، ومسلم (2572).
[27] الترمذي (966).
*لإتمام المعنى وإيضاح مدى رحمة الله سبحانه وتعالى وعدله، يُكمِل الحديث قائلا: "**وإنْ هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ سَيِّئَةً واحِدَةً**".

"... فمَن هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ عزَّ وجلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ إلى أضْعافٍ كَثِيرَةٍ*"[28].

ولا يعني هذا أن المسلم مطالب بالسعي للوقوع تحت طائلة المحن أو الابتلاءات، أو أن يَشُق على نفسه في أمور الحياة، فلا رهبانية في الإسلام، والدين يحض المسلم على اتباع نهج يسير في الحياة، ومما يَحسُن أنه من السهل على المسلم الإتيان بالحد الأدنى الضروري من واجبات الدين، فإذا رأى المسلم أنه مما يشق عليه الإتيان بركن أو أكثر من أركان الإسلام، فهذا راجع في الغالب إلى عدم إدراكه لمبدأ الرخصة التي يؤخذ بها في مثل تلك الحال، وليس إلى موقف الإسلام المتشدد أو افتقاده للمرونة، والحق أن الإسلام ليس دينًا متشددًا صلبًا، فيمكن للمسلم **إذا اقتضى الأمر** أن يصلي جالسًا أو راقدًا، وبإمكان غير القادر على صوم رمضان قضاء ما فاته في أيام أخر، أو أن يكفر عن صيامه بإطعام مساكين، ولا حرج أيضًا على من لم تتوفر له الاستطاعة البدنية لأداء **الحج** أن يستأجر من يؤديه عنه، إذن، في العادة لا يتصوَّر أولئك العاجزون عن القيام بركن أو أكثر من أركان الإسلام أن مرونة الشرع في التعامل مع أمور العبادات تتسع لجميع أحوال البشر.

تلك نقطة جوهرية؛ فكثير من المسلمين الجدد يسلكون سبيلًا متشددًا في التزامهم بأمور الدين بدافع من الحماسة والحمية، فيكون المآل المتوقع من إرهاق للنفس وتنفير للآخرين، ولذا أقول ناصحًا: "لا تفعل ذلك"، فرسول الله محمد ﷺ يقول: "**إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا، وأَبْشِرُوا، واسْتَعِينُوا بالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ وشيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**"[29]، كما رُوي عنه أنه ﷺ قال: "**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**"[30] (مُكرِّرًا قوله ثلاث مرات للتأكيد).

فحديث العهد بالإسلام مأمور بتطبيق الإسلام تطبيقًا تامًّا، برفق واعتدال، وعليه التيسيرُ على النفس في الأمور النافلة في الدين، وإليكم بعض الإرشادات المقترحة لما يجب وما لا يجب في هذا الصدد:

1) إياك والتطرُّف، ولْتركز على تعلُّم أساسيات الدين، وعلى تعلُّم ما يصلح بديلًا مجزِئًا ومقبولًا -إذا لزم الأمر- لما يعسُر عليك فعله، وخذ بالرخص الشرعية واعلم شروطها[31]؛ فيُسر الدين نعمة كما قلنا من قبل، ولا تكن متشددًا صلبًا، لا مع نفسك ولا مع الآخرين؛ إذ عاجلًا أم آجًلا سينكسر منك شيء، ففيما يخص معاملة الذات، ينصح النبي محمد ﷺ المسلمين قائلًا: "**عليكُم هديًا قاصِدًا؛ فإنَّهُ من يُشادَّ هذا الدِّينَ يغلِبْهُ**"[32]، وفي رواية أخرى: "**إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا ...**"[33]، أما فيما يتعلق بمعاملة الناس، فقد نصح الله ﷻ محمدًا ﷺ نفسه في القرآن قائلًا: {**فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ**} (آل عمران: 159).

---

[28] البخاري (6126)، ومسلم (206).
[29] البخاري (31).
[30] مسلم (2670).
[31] انظر كتاب (*Reliance of the Traveler*) للمترجم نوح حاميم كلر (Nuh Ha Mim Keller) نشرته Amana Publications, sections c6.2-6.5 and w.14.
[32] أحمد (422/4).
[33] البخاري (39)، والنسائي (121/8).

2) اعتدل في كل شيء؛ فالإسلام دين الوسطية، فإذا بحثت عن طريق الوسطية، توسَّطَت تلك التكليفات التي تبدو صلبة الطريقَ بين هذه الأمور المتطرفة.

3) بادر بالتزام التواضع والحشمة **وآداب** الإسلام وأخلاقه، ليس من أجلك فحسب؛ بل لأجل صالح أسرتك وأصدقائك وزملائك أيضًا، فإخوانك وأخواتك في الدين قد يغفرون هنَاتِك فيما يخص الدين والأخلاق، أما أصدقاؤك وأسرتك فلا، فهم يرقبونك منذ يومك الأول في الإسلام، وبتمثُّلك الأخلاق الحميدة ستترك لديهم أفضل انطباع عن الإسلام، ومما يؤكد أهمية هذا الأمر قول محمد ﷺ: **"إنَّما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ"**[34].

4) لا تجادل؛ فعادةً لا يملك المسلمون الجدد ما يؤهلهم للنقاش في أمور الدين، ولا يحسن بك أن تخدم **الدعوة** الإسلامية بالحديث عنها؛ بل بمطالعة بعض الكتب أو المؤلفات أو الأشرطة المسجلة التي تجلو القلوب والعقول في بادئ الأمر، وفوق كل هذا، كن صبورًا، وكن قدوة حسنة، ومثِّل الإسلام خير تمثيل.

5) كن قريبًا من المسجد ومن المجتمع المسلم، فمَواطِن القوة والرؤى التي تنبع من إخوانك وأخواتك في الدين ثمينة داعمة، ومن ناحية أخرى، فإن غير المسلمين من الأصدقاء والأهل دائبون في محاولتهم لرد المسلم الجديد عن دينه، وقد يزعزعون عزيمة المرء، لذا، لا تساوم على دينك لأجل أي أحد أيًّا كان؛ فإنك إن فعلت وقعت في **الكفر**.

6) إذا صادفت فتورًا في **الإيمان** -كما يحدث أحيانًا مع الكثير من حديثي العهد بالدين- فلُذْ دائمًا **بالشهادة**، وسَلْ نفسك ما إن كنتَ تؤمِن بأنه لا معبود إلا الله وأن محمدًا ﷺ رسوله الخاتم أم لا، فإن كنت تؤمن، فاطمئن إلى إيمانك؛ فالله يكفي المؤمنين، وعليه هم يتوكلون.

7) وَطِّن نفسك على أداء النوافل، كسُنن الصلاة وصيام التطوع، فهذه العبادات النافلة تعصم المؤمن من الكفر؛ فإيماننا جميعًا يتقلب، والمرء عند تعرضه لمثل تلك الانتكاسات ربما يفوته بعض من العبادات النافلة كسنن الصلاة أو صيام التطوع؛ لكنه لا يفرط بالفروض بحول الله، أما أولئك الذين يقتصرون على الفرائض، فإن أصابهم الفتور فليس هناك مجال للتفريط سوى في تلك الفرائض، فكما قال أحد المعلمين: "إن فرطت في **السنة** (نوافل الدين) هان عليك **الفرض** (التكاليف)".

8) الزم جماعةَ المسلمين من السنة -ويُعرفون كذلك **بأهل السنة والجماعة** (أي السائرون على هدي السنة)- فلقد أوردنا حديث النبي محمد ﷺ من قبل حين قال: **"لا تَزَالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلُونَ علَى الحَقِّ ظاهِرِينَ إلى يَومِ القِيامَةِ"**[35]، ومَن هي **الأمة** التي تقاتل على الحق؟ عند طرح هذا السؤال أجاب جمع غفير من علماء الدين العظماء -ومنهم الإمام أحمد، والإمام البخاري، وعلي بن المديني (من أكابر علماء عِلَل الحديث)،

---

[34] أحمد (8939)، والبخاري في "الأدب المفرد" (273) ، ومالك (1609).
[35] البخاري (3441)، ومسلم (156)، وأبو داود (4252)، والترمذي (2229).
*كل ما يُنسب إلى النبي من قول، أو فعل، أو تقرير، أو وصف.
**الاسم الذي يُطلق على أول أربعة خلفاء في الإسلام.

ويحيى بن معين (وهو من أكابر العلماء المتخصصين في طبقات رواة الحديث)، وابن المبارك، وسفيان الثوري... وغيرهم كثير- بأن تلك **الأمة** التي تقاتل على الحق تتمثل في أَتبَاع الحديث، أي **أهل السنة والجماعة**، ومن الأحاديث الدالة على ذلك قولُ النبي محمد ﷺ: **"إنَّه مَن يَعِشْ منكم يَرى بَعْدي اختِلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتي*، وسُنَّةِ الخُلفاءِ الراشِدينَ** المَهْديِّينَ، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكم ومُحْدَثاتِ الأُمورِ؛ فإنَّ كلَّ مُحْدَثةٍ بِدْعة، وإنَّ كلَّ بِدْعةٍ ضَلالةٌ"**[36].

9) تعلم تلاوة القرآن باللغة العربية، فإن القرآن مصدر للراحة والسلام والرضا وإن كنت غير متقن للعربية.

10) تعلم اللغة العربية، فالقرآن والحديث هما بوابتا الإسلام، واللغة العربية هي البوابة الأولى لتذوق القرآن والحديث وفهمهما.

11) استكشف عالم الإسلام إن استطعت، فإذا ما أتيحت لك الفرصة، كن جادًّا في دراسة أمر **الهجرة** إلى أي من أراضي الإسلام؛ ولكن الأمر ليس باليسير، فقد أصابت الكثير من المسلمين الجدد القادمين من الغرب حالةٌ من الإحباط الشديد بعد ما عاينوه من تراجع ملحوظ في المستوى الديني والدنيوي في بلاد الإسلام، فأعدَّ لهذه الخطوة عُدَّتَها، وابدأ بالزيارات الميدانية إن استطعت ذلك، وتذكر أنه كما أن أغلب المسلمين بالوراثة بمنأى عن وصف التقى والورع، فإن أرض الإسلام أيضًا كثيرًا ما تكون بمنأى عن وصف الإسلام؛ ولكنها قبل أي شيء بلاد إخواننا وأخواتنا في الدين، وأن مزيةَ العيش بينهم وتكثيرَ سَوادِهم فيهما من الخير ما يكافئ أي مشقة أو عسر، وعلى كلٍّ، لا تخلو حياة المسلم -بما فيها **الهجرة**- من المِحَن.

12) اجتهد في البحث عن سبيل تخدم فيها ربك، فإذا عاش المسلم دون هدف يُجاوِز أداء الصلوات الخمس وصوم رمضان كان ذلك مستوى ضحلًا مُحبطًا من مستويات الوجود الإنساني، فكثير من المسلمين يتطلعون إلى تحقيق إنجاز ضخم، وإذا وُضعوا في المكان المناسب، نَهَلُوا من منابع الإيمان الثرية، فلربما يوجه أحدهم جهده نحو الدراسة، ويدعو آخر إلى الدين، وينخرط ثالث في البرامج المجتمعية الخدمية أو يَهَب وقته للمجتمع، فَلْيَعِ المرء، مهما كان عمله الذي اختار، أن العمل لوجه الله يستوجب الأجر عاجلًا وآجلًا، وأنه قد يكون اللبِنَة التي يَتِم بها إيمان المرء ويَكمُل.

---

[36] الترمذي (2676).

4) الإحسان (مراقبة الله)

تعلمنا من حديث جبريل الذي أوردناه في الفصل الثاني معاني **الإسلام** و**الإيمان** و**الإحسان**، وقد يلاحظ أولئك الذين اطلعوا على كتابَي (*MisGod'ed*) و(*God'ed*) أن الفكرة الأساسية لهذين الكتابين تقوم على الأركان الستة للإيمان على نحو ما بيَّن هذا الحديث (وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر)، وتلك بنية مقصودة؛ فلقد ورد في ذيل حديث جبريل أن أمين الوحي جبريل قد أُرسِل ليعلِّم الناس الأمور الأساسية للدين، فما هي الصورة المُثلَى التي يجب اتباعها عند تطبيق الدين إذن؟

لقد ناقشنا قضية الإسلام في كتابَي (*MisGod'ed*) و(*God'ed*)، ومررنا سريعًا على أركان **الإيمان** -أو شعائر الدين- في الفصل الثاني من كتابنا هذا، وبقي لنا أن نناقش **مبدأ الإحسان** حتى نتمم الكلام عن التعاليم الواردة في حديث جبريل.

إن الإحسان- كما ورد في الحديث- هو "... أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، فالإحسان هو مراقبة الله في كل شيء وفي كل وقت وحين، وتمام **الإحسان** من تمام الدين والعبادة؛ فمن وفق **للإحسان** أيقن تمامًا بأن الله يعلم ويكتب كل ما يجول بخاطره وما يقول وما يعمل، وعليه، لا يمكن لمن تحلى **بالإحسان** أن يفرط في أي من واجبات الدين، فحتى حينما يخلو هذا الذي تحلى **بالإحسان** بنفسه، فإنه يحسب للملائكة الحَفَظَة ولعِلْم الله حسابًا، كما يحسب للآخرين حسابًا.

وعليه، ما السبيل إلى الوصول إلى علو الإحسان وكماله؟ كلما كان اليقين راسخًا ازداد المرء مراقبة لله، وذلك اليقين هو نتاج التربية الدينية والخبرة الحسية والروحية كذلك، وهذا مكمن اللبس إذن.

إن أهمية التربية الدينية واضحة؛ إذ يُمكن توقُّع الخبرة المادية الناجمة عن اتباع الدين؛ ولكن ماذا عن الخبرة الروحية؟ هذا هو مَوطِن الحيرة التي يقع فيها كثير من المسلمين، ويقودنا هذا إذن إلى الحديث عن الصوفية.

5) الصوفية

تعد الصوفية قضية شائكة بالنسبة لحديث العهد بالإسلام، فدائمًا ما يستطلع المرء في بداية رحلته مع الإسلام طيفًا واسعًا من الجماعات؛ ومن بينها الصوفية التي سرعان ما تجذب المرء وتحظى بإعجابه؛ وهذا عائد في جزء منه إلى اتصافهم بالكرم والبشاشة وحسن الاستقبال؛ ولكنه يرجع بالأساس إلى المرونة الفائقة التي يمارسون بها دينهم (وقد وصلت بعض جماعاتهم بالفعل إلى حد تحوير أمور الدين)، أضف إلى هذه الأسباب ميلَ كثير من الناس ميلًا فطريًّا إلى تلك الطرق التي تعتني التعاليمُ والمطلوباتُ فيها بالروحانيات.

والواقع أن من اتَّبع دين الحق ستحوطُه تلك الروحانية بدرجة أو بأخرى؛ إذ يَنتظر -بلا شك- أولئك الذين يطلبون رضا الله أن يمن الله بالفهم والتبصرة على عباده المخلصين، وإليك حديثين، أولهما:

"إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه"[37].

وثانيهما:

"يقول الله تعالى: أنا مع عبدي إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة"[38].

يستنبط المسلم من هذه التعاليم أنه كلما زاد البذل في سبيل رضا الله، زاد الأجر والقرب منه، وعليه، ما إن التزم المرء بتعاليم الله، كافأه الله على أعماله من كل جانب[39]، لا بد للمسلمين أن يمروا بفترات يسر وفترات عسر في هذه الحياة الدنيا، وعليهم أن يواجهوا كلًّا منها بوعي روحي عالٍ يبرهن على ثباتهم على الحق والتزامهم بالدين.

من هذا المنطلق، يبدو أن الفارق بين المسلمين غير الصوفيين والصوفيين أنفسهم كامن في التوجه، أما غير الصوفيين فتتركز جهودهم في تعلم **العقيدة**، و**الفقه**، و**الأخلاق**، وكذا الحدود العملية للدين من أجل ضمان سلامة القول والعمل، ويعيش أولئك المسلمون دينهم على أتم وجه، ساعين إلى رضا الله سبحانه وتعالى، خائفين من عقابه، سائرين بدافع محبته، وقد يحصل الوعي الروحي العالي بعد ذلك؛ لكنه ليس هدفًا **في حد ذاته**، وينصبُّ تركيزهم مباشرة على سلامة العقيدة، والعبادة، والممارسة؛ فهي أمور توصل إلى الفوز برضا الله وتحقيق النجاة، أما إذا شابت سلامةَ **العقيدة** و**العبادة** والممارسة شائبةٌ ما، فلن يحقق التعمقُ في الصوفية النجاةَ للعبد، ولهذا

---

[37] البخاري (6137).

[38] البخاري (6970)، ومسلم (2675)، وأحمد (7416)، وابن ماجه (3822،3792).

[39] لا يعني هذا التعجيل بأجر العبد الصالح في الحياة الدنيا بالضرورة، هذا على نحو ما يرى كثير من اليهود والنصارى؛ فقد يريد الله اختبار الأتقياء بالتضييق عليهم في الحياة الدنيا، مدَّخِرًا لهم الأجر في الآخرة، ومن ثم، عاش الأنبياء وكثير من أهل الله وخاصته حياة شاقة في هذه الحياة الدنيا؛ ولكنهم وُفُّوا أجورًا عظيمة في جَنَّة الآخرة.

السبب يلتزم المسلمون غير الصوفيين بالدين والتعلم والممارسة جنبًا إلى جنب مع الالتزام بالمصادر المعتبرة (وهي القرآن، والسنة، وفهم العلماء الثقات لهما)، فبهذه الطريقة تزكو النفس، وربما تسمو إلى درجة الروحانية العالية، وهي -رغم كونها نتيجة متوقعة- ليست هدفًا أوَّليًّا في ذاتها.

وعلى الصعيد الآخر، يميل الصوفيون إلى البعد عن دراسة أساسيات الدين وممارستها، ساعين -بدلًا من ذلك- إلى الوصول إلى معايشة التجارب الصوفية العميقة والارتقاءات الروحية، وغالبًا ما يكون أولئك الذين يولون جل اهتمامهم إلى الروحانيات أكثر ميلًا إلى التضحية بسلامة **العقيدة** والممارسة الصائبة لشعائر الدين، مما يؤدي عادة إلى التهاون في أمر الانتساب إلى الإسلام؛ بل إلى إبطاله في الغالب، وفي أقل تقدير يجنح جل الصوفيين -إن لم يكن جميعهم- إلى الابتداع في الدين، وإذا تذكرنا القاعدة العامة القائلة بأن "الأصل في العبادات التحريم ما لم يرد ما يحللها"، أدركنا السبب الذي لأجله حذَّر ابن مسعود (وهو أحد أكابر **الصحابة**) قائلًا:

"اتَّبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتُم"[40].

وقال أيضًا:

"الاقتصاد في السُّنة خير من الاجتهاد في البدعة"[41].

ولقد ورد عن ابن عمر (وهو **صحابي** جليل آخر) قولٌ يؤيد ما سبق: **"كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة"**[42].

وقد يكون من المفيد الاستعانة بإحدى القصص الطويلة البليغة على تلخيص ما سبق، حيث ورد في هذا الأثر أن أبا موسى الأشعري قال لابن مسعود:

"رأيت في المسجد قومًا حِلَقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى، فيقول: كبروا مئة، فيكبرون مئة، فيقول: هللوا مئة، فيهللون مئة، ويقول: سبحوا مئة، فيسبحون مئة، فقال ابن مسعود لأبي موسى: "أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم، وضمنتَ لهم ألا يضيع من حسناتهم؟" ثم مضى (ابن مسعود) حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليها قائلًا: "ما هذا الذي أراكم تصنعون؟" قالوا: "يا أبا عبد الرحمن، حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح".

قال: "فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء، وَيْحَكم يا أمة محمد! ما أسرع هلكتَكم! هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون، وهذه ثيابه لم تَبْلَ وآنيته لم تُكسر (أي لم يمض وقت طويل على وفاة النبي ﷺ). والذي نفسي بيده، إنكم لتزعمون أنكم على ملة هي أهدى من ملة محمد ﷺ أو مُفتتِحو باب ضلالة (أي بدعة، أو ابتداع في أمور الدين)".

فقالوا: "والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير".

---

[40] الدارمي (205).
[41] البيهقي (4522)، والدارمي (223).
[42] اللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة (126).

قال: "وكم من مريد للخير لن يصيبه؟".

ثم قال: "إن النبي ﷺ حدثنا أن قوما يقرأون القرآن لا يُجاوِز تراقيهم، وايم الله، ما أدري لعل أكثرهم منكم".

ثم تولى عنهم.

وقال أحد رواة هذا الأثر: **"رأينا عامة أولئك الحِلَق يُطاعِنونا يوم النهروان مع الخوارج (وهي معركة قاد فيها علي بن أبي طالب -رابع الخلفاء الراشدين- المسلمين لمحاربة الخوارج، أول فِرَق المسلمين المنحرفة، وإلى درجاتها ينتمي بعضٌ مِمَّن سَبَقَ ذِكرُهم)"[43].**

نتعلم من هذا الأثر أن بدايات الضلال قد تبدو صغيرة أحيانًا؛ لكن عواقبها وخيمة، لأجل ماذا؟ لأجل أن يأتي المرء أمرًا يظنه خيرًا لكنه "يجعله يخطئ الهدف"؟ إن أهمية اتباع السنة راسخة؛ فلقد ورد عن محمد ﷺ أنه قال: **"إنه ليس شيء يقربكم إلى الجنة إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم إلى النار إلا قد نهيتكم عنه"**[44]، ورغم هذا، يسعى الصوفيون إلى طُرُق وسُبُل يعزِّزون بها عبادتهم، مُوشِكين على انتهاك محارم الله سبحانه وتعالى وواقعين غير مرة في الابتداع.

وهنا يجب علينا أن نُلمِح إلماحة تاريخية، لا يمثل أصل مصطلح "صوفي" أهمية بالغة؛ إذ لم يرد ذكره في القرآن أو السنة؛ ولأن التصنيف يفتح باب الطائفية الذي يذمه الله (وانظر قول الله في (الأنعام: 159) وفي (الشورى: 13)) كذلك، على كلٍّ، يبدو أن مصطلح "صوفية" قد اشتُق من ممارسة الزهد قديمًا بارتداء **الصوف،** فلقد هجرت مدرسة الزهد القديمة هذه مُتَع الدنيا حتى أجبرهم الفقر على ارتداء الصوف، وهو لباس غير منتشر بين الناس، قاسٍ، يصيب لابسيه بالحر والتعرُّق، وبخاصة في تلك الحرارة الشديدة التي تتصف بها بلدان الشرق الأوسط، (فعلى عكس أقرانهم المسيحيين الذين ارتدوا لباسًا مصنوعًا من شعر الخيول -هذا لاقتناعهم بأنه على قدر المعاناة في الدنيا يكون الأجر- كان صوفيو الإسلام شديدي الفقر للحد الذي يعجزون فيه عن ارتداء أي لباس يناسب بيئتهم سوى الصوف)، وقد ينجذب البعض لعلامات الإخلاص والتفاني هذه، لكن يرى آخرون أنه لا رهبانية في الإسلام، فإفقار النفس وإرهاقها أمر غير مأمور به وغير مقبول، إلا أن يكون المرء مغلوبًا على تلك الحال، والحق إن الإسلام يحض المسلمين على الإنتاج والسعي على الرزق، فلقد قال محمد ﷺ: **"ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده"**[45]، وعندما سُئِل رسول الله ﷺ عن أطيب الكسب، قال: **"عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور"**[46]، زد على هذا تعليق أبي الدرداء قائلًا: "صلاح المعيشة من صلاح **الدين**، وصلاح **الدين** من صلاح العقل"[47].

وعلى أية حال، يبدو أن الصوفيين مرتبطون بالزهد والروحانية، وبمرور الوقت يراهم أتباعهم من العوام مُنزَّهين، وتُعرف كل فرقة من هذه الفرق **بالطريقة** الصوفية، وتحكمها تعاليم روحية

---

[43] الدارمي (204).

[44] الطبراني في "المعجم الكبير" (1647) .

[45] الترمذي (1358)، وابن ماجه (2290).

[46] البيهقي (10177).

[47] كتاب "جامع بيان العلم".

محددة، وتتنوع **الطُّرُق** أيما تنوع، ولا يمكن تصنيفها على نحو واحد؛ إذ تختلف **العقيدة** الصوفية **والعبادة** والشعائر من جماعة إلى أخرى اختلافًا يضم تلك التي تسير على الحق، إلى تلك التي تسير على **البدعة**، وصولًا إلى التي هي على **الكفر**، فمن ناحية، تسير ثلة قليلة من الصوفيين على جادة الحق، لكن الغلبة -من الناحية الأخرى- لهذا الجمع الواقع في التفريط في الشريعة الإسلامية لحساب معتقدات وممارسات شاذة.

أما سقوط الصوفية فيكمن في تحولها من الصوفية الأولى إلى صوفية اليوم، فلقد كان الصوفيون الأوائل أتقياءَ، نال منهم الفقر والعوز بسبب انصرافهم إلى العبادة، زاهدين فيما دونها من ملذات، بما في ذلك تحسين ظروف الحياة ومن ثم السعي على الرزق، ومع هذا تشكلت في وقت قصير جدًّا تلك **الطرق** الضالة؛ سواء بالتفافها حول التعاليم الغريبة التي اختلقها قادة يتمتعون بشخصية كاريزمية رغم شذوذ مذاهبهم، أو بانحرافها عن تعاليم جماعة المسلمين بفعل إلحاحات الضلال.

وعليه، يسلك أولئك المُتَّبِعون **للطُّرُق** الصوفية مَسلَكًا وَعرًا، تَقِلُّ فيه الفِرَق الناجية بدينها في أيامنا هذه، ويندر أن يثوب فيه الأتباع إلى الحق، ورغم هذا، لا يدق ناقوسُ خطر الصوفية والروحانية في آذان كثير ممن سهُل خداعهم وتضليلهم ممن لا يَتَسلحون **بالفقه** في الدين، وتلك ظاهرة مُتكرِّرة في دين اليهودية والمسيحية والإسلام.

ففي هذه الأديان السماوية الثلاثة، عادة ما يضل أولئك الذين يقدمون المناهج الروحانية على اتباع نصوص الشرع، فهم منجذبون إلى التعاليم الروحية التي قال بها "شيوخ الطريقة" والقادة المؤثرون أكثر من انجذابهم إلى الصراط المستقيم الذي بيَّنه الله، وفق ما جاء به الوحي، ومن خلال التأسي بالأنبياء، وعادة ما ينقسم الأتباع تحت مظلة الإسلام إلى فريقين: أولهما أَتبَاعٌ ضالون يرجع جهلهم إلى فقر في معرفة تعاليم الإسلام الأساسية الواقية من الضلال، وعلى النقيض، تجد فريق الأتباع الثاني على علم بمبادئ الإسلام وعلومه، وقد يرقون إلى منزلة العلماء في بعض المجالات، ويكثر أن يمارس هؤلاء الأفراد الدين بصرامة لافتة، سالكين أشق الطرق وأكثرها حذرًا فيما يخص أمور الدين كلها (دون مساس بشعائرهم الصوفية)، ومما يدعو إلى الغرابة -وناهيك من روحانيات الصوفية- أن النظام الذي يميل أصحاب التوجه العلمي الصوفي فيه إلى تسطيح المعايير كثيرًا متمثل عادة في المجال الشائك **للعقيدة**، صحيح أنهم قد يكونون علماء في **الفقه**؛ لكنهم يستمسكون بضلالات عَقَدِية تخاطر بنجاتهم.

لقد نتج عن ذلك عدد كبير من الضلالات يتمثل أخطرها في **الشرك** أو **الكفر**، فبعض **الطرق** تصل إلى حد إعلاء محمد ﷺ فوق حدود البشرية، وتصل بالبعض الآخر منهم إلى تأليه شيوخهم، وهناك أمر آخر ربما كان أقل خطورة -ولكنه جد خطير- ألا وهو تمييع قواعد الإسلام من أجل إباحة المزيد من الأمور تحت شعار التجديد.

ولا داعي للعجب، فتاريخ الأديان يُظهِر ميل الإنسان إلى الانحراف عن شريعة الله إلى الطرق التي تعتمد فكرًا متساهلًا في الإباحة، وبخاصة إذا تَزَيَّت هذه الطرق بمزاعم تؤكد التمتع بخصوصية روحية، فكما كانت الصرامة الشديدة للشريعة اليهودية القديمة وكثرة التكاليف فيها سببًا لظهور اليهودية الإصلاحية بطبيعتها الروحانية المتسامحة، لاقت المسيحية هي الأخرى تحولًا من شريعة العهد القديم المتصلة بالأصول التوحيدية إلى الروحانية المتساهلة المتصلة

بالغنوصية[48]، التي كَوَّن منها المسيحيون المؤمنون بعقيدة التثليث جماعة فرعية (هذا على نحو ما ناقشنا في كتابَي (*MisGod'ed*) و(*God'ed*)، وتُواصِل الفِرَق المنحرفة التي ترفع شعار الإسلام -وأغلبها من الصوفية- هذا النهج المشتت القائم على التساهل الشديد في الإباحة، متعارضة بذلك مع شريعة الإسلام الواضحة القائمة.

ودعونا نختم هذا الجزء بالملاحظات الآتية:

1) معظم الذين يلتمسون طريق الروحانية يطمحون إلى **نيل مرتبة الولي** أي أن يكون المرء منهم "وليًّا لله"، تلك التي يسعى إليها الصوفيون من أجل الوصول إلى مرتبة القداسة التي تَكمُل بالملكات الروحانية، وتسيطر على أولئك الصوفيين رغبةٌ في إدراك مكانة روحية عالية، ويرون أن السبيل القويم لتحقيقها هو سبيل الصوفية، وهذا غير صحيح؛ فلكي يكون العبد **وليًّا** حقًّا -وهو كما فسره الله سبحانه وتعالى بأن يكون العبد مؤمنًا تقيًّا لله (وانظر قول الله في (يونس: 62-63))- عليه أن يمارس الدين على نحو ما أُنزل بلا زيادة أو نقصان.

2) في حين أن المتشددين وأصحاب النزعة المتطرفة في **الفقه** يتبعون نهجًا صارمًا دقيقًا، يأتي الصوفيون عادة في الطرف الآخر، فهم "مرنون" على نحو غير مقبول؛ إذ يتساهلون في أشنع الذنوب وفي أمور الفسق السافرة؛ بل حتى في أمر **الكفر** غالبًا، ويرى من ليس صوفيًّا أن الصوفيين شاذون، لا في الطريقة التي يتصرفون بها فحسب؛ بل وفي الطريقة التي يفكرون بها، وعلى الجانب الآخر، يرى الصوفيون غيرهم أدنى في "المستوى الروحي"، ومن ثم يرونهم عاجزين عن فهمهم بموجب هذا الدنو، بهذه الطريقة، يؤمن الصوفيون بفَوقِيَّة رُوحية تُشبِه تلك التي كان عليها نُظراؤُهم من اليهود والمسيحيين.

3) وهناك علامة أخرى تميز الصوفيين تتمثل في ميلهم -لسبب ما- إلى التساهل في أمور العقيدة أو العبادة، وهم منغمسون في ممارسة طقوس **الطريقة** التي اختاروها، فعلى سبيل المثال، قد يلاحظ المرء حضور بعض الصوفيين على الدوام محافل الصوفية؛ لكنهم لا يكترثون لحضور أحد أهم التجمعات الإسلامية، أي صلاة الجماعة في المسجد، ويبذل بعض الصوفيين أوقات فراغهم وإمكاناتهم المادية في زيارة "شيوخ" **الطريقة**، في حين أنهم لا يؤدون فريضة الحج، وهناك بعض الأمثلة الأخرى التي تُظهِر التقصيرَ في أمور العقائد والعبادات الإسلامية على أنه ناقوس خطر.

4) وكما أن بعض الصوفيين يقللون من أهمية أركان معينة في الدين، فهناك آخرون (من الصوفيين المتطرفين، وهم كثرة كاثرة) يصل بهم الأمر إلى حد السخرية من الدين، فعلى سبيل المثال، يتوقف بعض الصوفيين عن أداء الصلاة، ودليلهم متمثل في إساءة تفسير الآية القائلة: **{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}** (الحجر: 99)، ويزعم هؤلاء الصوفيون أن "اليقين" مقصود به التيقن من الدين، وهو ما وصلوا إليه، فلم تعد لهم حاجة في الصلاة إذن، وهذا فهم خاطئ؛ فلقد ظل محمد ﷺ ومن سبقه من أنبياء الله

[48] الغنوصية أو العرفانية تطلق على مجموعة من أفكار ومعارف من الديانات القديمة التي انبعثت من المجتمعات اليهودية في القرنين الأول والثاني الميلاديين.

يصلون حتى وافتهم المنية، فهل يزعم هؤلاء الصوفيون أن يقينهم بالدين يفوق يقين أنبياء الله به؟ أما التفسير الصحيح لهذه الآية فمتمثل في الأمر بأداء الصلوات الخمس في كل يوم وليلة حتى الممات، وليس هذا اليقين المشار إليه في هذه **الآية** اليقين بالدين، الذي يدركه البعض ولا يدركه البعض الآخر؛ لكنه الموت، وهو الحقيقة اليقينية المكتوبة على الجميع، ودليل هذا الفهم مستنبط من **تفسيرَيْ** ابن جرير الطبري وابن كثير (وهما من أعظم كتب التفسير)، وقد اعتمدا في تفسيرهما هذا على تفسير بعض التابعين للقرآن (وهم: سالم بن عبد الله، ومجاهد، وقتادة، والحسن البصري، وعبد الرحمن بن زيد)، وليس هناك ثمة **مُفسِّر** مشهور من بين السلف الصالح قد فسر هذه الآية على نحو ما فسرتها الصوفية المُغالِية.

5) على نحو ما جاء في المثال السابق، ضلَّ كثير من الصوفيين بذات الطريقة التي ضل بها اليهود والنصارى؛ فلقد ورد في القرآن أن اليهود والنصارى قد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم **{أَرۡبَابا مِّن دُونِ ٱللَّهِ}** (التوبة: 31)، وهناك حديث جاء فيه أن "**عديَّ بنَ حاتم أتى النبي ﷺ وفي عنقه صليب من ذهب، وكان النبي ﷺ يقرأُ هذه الآيةَ: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}، فقال عدي: إنهم لم يكونوا يعبُدونهُم، فقال النبي ﷺ: أجل؛ ولكن يحلونَ لهم ما حرمَ اللهُ فيستحلونهُ، ويحرمونَ عليهم ما أحلَّ اللهُ فيحرمونهُ، فتلكَ عبادتهُم لهُم**"[49]، وعلى المنوال ذاته، يتبنى كثير من الصوفيين تعاليم شيوخهم المتحررة الفاسدة ويفضلونها على التعاليم الواضحة التي أتى بها نبي الله محمد ﷺ، متبعين شيوخ طريقتهم في إتيان المحرمات التي أحلها شيوخ الصوفية هؤلاء؛ مثل ترك الصلاة، إذن، يقودنا هذا الموضوع مباشرة إلى ما يلي:

6) يبرر معظم الصوفيين أعمالهم ومعتقداتهم مستعينين بأحاديث موضوعة أو ضعيفة، أو بتأويلات غير صحيحة للقرآن، وهو أمر توقعه القرآن إذ يقول: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ...}** (آل عمران: 7).

7) ونظرًا لاستخدام الصوفيين تأويلات "تناسبهم"، وبحثهم عنها باستمرار، فإنهم دائمًا ما يعظِّمون الأحداث والشخوص، ومن خلال هذه النزعة المضطربة، غالَى الصوفيون كثيرًا في المكانة التي يضعون فيها محمدًا ﷺ أو آل بيته، أو "شيوخ الطريقة" الذين زعموا اقتفاء أثر النبي ﷺ (**بطريقتهم** الخاصة بالطبع)، وقد يقود هذا في بعض الأحيان إلى **الشرك** وإلى **الكفر في أحيان أخرى**، وإليهما معًا في غالب الأمر، فعلى سبيل المثال، حاول أحد الصوفيين ذات مرة إقناعي بأن أتباع **الطريقة يتعبدون** حتى -كما قال- "يتوحدوا مع الله"؛ وتلك عبارة صريحة تودي إلى **الشرك** أو **الكفر**، حتى إن قيلت على سبيل المجاز، والحق أنه حسب الشريعة الإسلامية يقع الطلاق إذا تلفظ به الزوج **وإن كان مازحًا!** إذن، الطلاق في الشريعة الإسلامية أمر جاد حتى إنه لو تلفظ به الزوج -ولو على سبيل المزاح- وقع! فما بالنا بمدى جدية عبارة كتلك السالفة؛ تلك التي تنفي

---

[49] الترمذي (3095)، والبيهقي (20137).

الوحدانية عن الله، وهي أقدس الحقائق **على الإطلاق؟** فنجاة المرء مرهونة بهذه العقيدة الإيمانية الأصيلة.

8) ويدعي العديد من الصوفيين أن هناك انتسابًا روحيًّا يمتد بهم إلى أحد **الصحابة، يتلقون العلم على يديه**، وعلى هذا العلم تنبني أصول طريقتهم، فلقد ذاع عن أحد "شيوخ" الصوفية في إنجلترا وسط أتباعه بأنه "الحلقة الرابعة عشرة في السلسلة الذهبية"؛ إذ يشيرون بهذا إلى أنه الشيخ الرابع عشر في سلسلة يعود أصلها إلى النبي محمد ﷺ، ومع هذا، لا تغير هذه العبارات البراقة من الحقيقة شيئًا؛ فهذه "السلاسل الصوفية" لا يمكن تتبعها لما يزيد على 300 عام في أكثر تقدير، كما أنها تعج بأسماء أناس مجهولين وغير معتبرين، لا ترقى أعمالهم إلى حد الإجلال ولا سمعتهم إلى حد الاشتهار.

9) وفي حين أن هناك العديد من **طرق** الصوفية المنحرفة اليوم، فإن قليلًا منها -إن وُجِد أصلًا- على صواب، فهؤلاء الصوفيون السالكون لهذه الطرق يخاطرون بالنجاة، ولأجل ماذا؟ إن الطريق الآمن أبلج؛ ولكن طريق الصوفية زلقة مخادعة، وثمرتها عصية، وتعاليمها مآلها إلى الشك في أحسن الأحوال، وإلى الكفر في أسوئها، ولقد قال محمد ﷺ: **"إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ، وبيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وعِرْضِهِ، ومَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ وقَعَ في الحَرامِ، كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فِيهِ، ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وإنَّ حِمَى اللهِ مَحارِمُهُ"**[50]، فالويل إذن لمن انتهك محارم الله، سواء كان منفردًا أم مُتَّبِعا **لإحدى هذه الطرق.**

---

[50] البخاري (52)، ومسلم (1599)، وأبو داود (3329).

6) مداخل الشيطان

إن طريق التقوى تؤدي بالمرء إلى مواجهة صراع بين الخير والشر، فعلى الرغم من أن المسلم الجديد يتعلم وجوه الخير -أي عقائد الدين وعباداته- مرات ومرات، فإن من أكثر الأمور أهمية بالنسبة له، وأقلها جدلًا، طريق الشر، ونحن نعني بقولنا طريق الشر: طريق (أو **سنة**) **الشيطان** (ويُعرَف كذلك بإبليس)، الذي جعل همه الأكبر (ومعه معاونوه من الشياطين، وهم شرار الجن أو العفاريت) هو تضليل البشر، وإذا علم المرء عقائد الدين وعباداته، عرف سبيل التقوى، وإذا عرف المرء **سنة** الشيطان أو سبيله، "عرف عدوه"؛ كي يحمي نفسه من حبائله وضلالاته.

نقول في البدء: إن لإبليس مداخل عديدة، فبالنسبة إلى أولئك الذين هم على ضلال، فهو يرغبهم في التمادي في ضلالهم من خلال تسهيل سبيل المعصية وتزيينه لهم، فربما ترك العاصي ولم يتعرض له، ثم ما يلبث أن يعود فيقدم له صنوف اللذات، أو الخبرات الروحانية، أو الخوارق الجلية من أجل تثبيت الضال على عقيدته الفاسدة، ومن ثم، فقد يكون للأصنام صوت ونداء بفعل حبائل **الشياطين**، فيندفع بذلك عباد الأصنام إلى الانغماس الشديد في أعماق ضلالهم الوثني، وقد يختلق إبليس أو أحد أتباعه من **الشياطين** تصورات عن المسيح أو مريم من أجل ترسيخ العقائد الضالة التي تقوم على أسس مهترئة؛ مثل التثليث أو تأليه المسيح، أو على مستوى أقل، قد تأخذ الكافر العزة بالإثم من أجل إثبات الباطل، ومن ثم يضيع التواضع الذي يحتاجه المرء ليؤوب إلى الخالق بصدق وإخلاص.

ما هي الخطيئة الأولى؟ هذا سؤال يؤرّق معظم حديثي العهد بالإسلام؛ بل كثيرًا من المسلمين عامة كذلك، فما هي الخطيئة الأولى إذن؟ أهي أكل الفاكهة المحرَّمة؟ لا، ليست كذلك، فأول خطيئة هي الكِبْر الذي أخرج إبليس من الجنة، إذن، أول الخطايا لم يقترفها آدم؛ بل اقترفها إبليس، وها هي القصة باختصار: كان إبليس من الجن الصالح، وقد كان يعبد الله على درجة من التقوى ألحقته بمرافقة الملائكة، ومع هذا، وعندما خَلق الله آدم وأمر أهل السماوات بالسجود له، تمكن الكبر من إبليس ورأى أنه الأفضل، مُتعلِّلًا بأن الجن قد خُلق من نار؛ بينما خُلق البشر من طين، وها هي القصة كما يرويها القرآن الكريم:

> **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}** (البقرة: 34).

أخبرنا الله فيما لا يزيد عن سطر قصير أن إبليس أبى، وسبب ذلك هو الكبر، ومن ثم كان الكفر، ما أسرع ما يمكن أن ينقلب المؤمن من نعمة الإيمان إلى الكفر! ولسبب لا يعدو الكبر، ويا لشر ما يحصد، وتُكمل القصة على النحو الآتي:

> يقول الله تعالى: **{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}** (الأعراف: 12).

> ويقول كذلك: **{قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}** (الأعراف: 13).

> ويرد الشيطان قائلًا: **{قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ}** (الأعراف: 14).

فيقول الله تعالى: **{قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ}** (الأعراف: 15).

ثم يرد الشيطان قائلا: **{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ}** (الأعراف: 16).

ويقول كذلك: **{ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}** (الأعراف: 17).

فكان العقاب لإبليس على كبره الذي منعه من الامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى، أن طرده الله من الجنة، وبعد أن اطمئن أن الله قد أمهله إلى يوم الدين، أخذ إبليس على نفسه العهد بإضلال البشر عن "الصراط المستقيم"، ولقد توعد اللهُ أولئك المتبعين لضلال إبليس قائلًا: **{لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ}** (الأعراف: 18).

وهنا نلتفت سريعًا إلى قارئ هذه الكلمات، ونقول ما هي الصفة الغالبة للبشر إن لم تكن الكِبر؟ وما الذي يمنع معظم الناس من اللجوء إلى الله بتذلل بحثًا عن الحق؟ إن الإجابة كامنة في الكِبر، وما مقدار السرعة التي يمكن أن يَقلِب بها الكبرُ المرءَ من الإيمان إلى الكفر؟ ويخرجه من الجنة إلى النار؟ في لمح البصر، ولك في القصة السالفة العبرة.

ما هي نقاط الضعف الأخرى الكامنة في الطبيعة البشرية، التي تتيح **للشيطان** ثغرات يوسوس من خلالها للبشر بعصيان الخالق؟ الحسد إحداها، والطمع منها، وطول التمني، واليأس، والسخط، والجزع، والشهوة، والغضب، وأشياء أخر، ومنها القناعة نفسها، إذا أقعدت المرء عن العمل؛ ولكن الكبر يأتي في أول هذه الأمور وفي آخرها وفي وسطها كذلك.

دعونا ننظر في آلية عمل الشيطان إذن، نقول في البداية: إن لإبليس -أو **الشيطان**- أولويات، فهو يبدأ بمحاولة إيقاع الناس في **الكفر**، وإن لم يوقعهم في **الكفر**، سعى إلى إيقاعهم في **الشرك** الأصغر، وإذا عجز، سعى إلى إيقاعهم في **البدعة**، وإذا فشل، حاول إيقاع الناس في كبائر الذنوب، وإن عجز، ففي صغائرها؛ لكن ماذا إذا عجز **الشيطان** عن إيقاع المرء حتى في صغائر الذنوب؟ عندئذ، سيسعى إلى إفساد العمل الصالح، بإدخال الكبر إلى النفس مثلًا، من خلال إيقاع المرء في الرياء، أو حثه -من خلال غريزة الطمع- على السعي إلى اتخاذ عمله الصالح سبيلًا إلى تحصيل متاع الحياة الدنيا بدلًا من نيل رضا الله، وقد يحبط الله عمل العبد بفعل هذه الدوافع، وحتى نضع الأمور في نصابها، نقول: إن محمدًا ﷺ أخبر أن أول من تُسعَّر بهم النار يوم القيامة عالم، ومُتصدِّق، وشهيد لم يبتغوا بأعمالهم وجه الله، وها هو نص الحديث:

روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: **"إنَّ اللَّهَ تبارَك وتعالى إذا كانَ يومُ القيامةِ ينزلُ إلى العبادِ ليقضيَ بينَهم، وَكلُّ أمَّةٍ جاثيةٌ، فأوَّلُ من يدعو بِه رجلٌ جمعَ القرآنَ، ورجلٌ قُتِلَ في سبيلِ اللهِ، ورجلٌ كثيرُ المالِ، فيقولُ اللَّهُ للقارئِ: ألم أعلِّمْكَ ما أنزلتُ علَى رسولي، قالَ: بلى يا ربِّ، قالَ: فماذا عملتَ فيما عُلِّمتَ، قالَ: كنتُ أقومُ بِه آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ، فيقولُ اللَّهُ لَه: كذَبتَ، وتقولُ الملائِكةُ: كذَبتَ، ويقولُ له اللَّهُ: بل أردتَ أن يقالَ فلانٌ قارئٌ فقد قيلَ ذلكَ، ويؤتى بصاحبِ المالِ فيقولُ اللَّهُ: ألم أوسِّعْ عليكَ حتَّى لم أدعْكَ**

تحتاجُ إلى أحدٍ، قالَ: بلى يا ربّ، قالَ: فماذا عمِلتَ فيما آتيتُك، قالَ: كنتُ أصلُ الرَّحِمَ وأتصدَّقُ، فيقولُ اللَّهُ: لَه كذَبتَ، وتقولُ الملائِكةُ لَه: كذَبتَ، ويقولُ اللَّهُ: بل أردتَ أن يقالَ فلانٌ جَوادٌ وقد قيلَ ذلكَ، ويُؤتى بالذي قُتلَ في سبيلِ اللهِ فيقولُ اللَّهُ لَه: في ماذا قُتِلتَ، فيقولُ: أُمِرتُ بالجِهادِ في سبيلِك فقاتلتُ حتَّى قُتلتُ، فيقولُ اللَّهُ لَه: كذبتَ، وتقولُ لَه الملائِكةُ: كذبتَ، ويقولُ اللَّهُ: بل أردتَ أن يقالَ فلانٌ جريءٌ فقد قيلَ ذلكَ، ثمَّ ضربَ رسولُ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ علَى رُكبتي، فقالَ: يا أبا هريرةَ أولئِك الثَّلاثةُ أوَّلُ خلقِ اللهِ تُسعَّرُ بِهمُ النَّارُ يومَ القيامةِ"[51].

جوهر الأمر إذن هو أن الأعمال الصالحة إذا لم يُرَد بها وجه الله رُدَّت على صاحبها؛ لكن هناك أمثلة أخرى على الأعمال يكون الحكم فيها حسب النية، وإذا لم يكن العلماء، ولا أهل العطاء، ولا الشهداء في مأمن من تلك النيات الخاطئة، فمن الآمن إذن؟

وإذا عجز إبليس عن كل هذا، فقد يغر العبد بالرضا؛ إذ الشعور بالاكتفاء (الثقة الشديدة بإنجاز ما يكفي من الأعمال الصالحة) قد يمثل أولى خطوات انتكاسة المرء من قمة الصلاح، وأما أولئك الذين لا يقوى إبليس على تدميرهم بالكلية، فقد يحاول استدراجهم شيئًا فشيئًا.

أما إذا ثبت العبد على طريق الصلاح، عندئذ لا يستسلم **الشيطان**؛ فقد يواصل التأثير على العبد بأن يثنيه عن إتيان الصالحات الأعظم أجرًا إلى الأقل أجرًا؛ ولكن يظل هناك دائمًا متسع من الوقت على مدار اليوم.

ومن ثم، على المرء أن يكون يقظًا وألا ييأس، فعِلْمُ المرء أن حياة الصلاح تعني حياة مليئة بالصراع مع قوى الشر -حيث يعمل إبليس على المرء من ناحية المغريات الخارجية والشهوات النفسية الداخلية- عِلمُه بهذا يعينه على الاستعداد للمواجهة، كما يعينه علمه بأن إبليس لن يستسلم حتى تفارق الروح الجسد على التزام الصبر والثبات، وكذلك يعينه علمه بأن الله خلق البشر ناقصين على عدم الركون إلى اليأس؛ حيث إن اختبار إيمان العبد لا يكمن في الوصول إلى ما هو مُعجِز (أي الكمال)، وإنما في اللجوء إلى الله ليقبل **التوبة** إذا ما **اقترف** العبد الذنب، وهذا من رحمة الله بالعبد، وتتمثل مشكلة عَجْزِ البعض عن إدراك نزوع البشر إلى الخطأ في أن رؤية أولئك الناس للأمور الدينية تمامًا كرؤيتهم للأنظمة الغذائية، فلو أن أحدهم خرق نظام الوجبة بتناول ورقة زائدة من الخس، ظن أنه قد أفسد النظام وانتهى الأمر، فيلتهم حينها علبة كاملة من الكعك المُحلَّى ونصف لتر من شكولاتة فادج رويال! قد تكون هذه طبيعة الأنظمة الغذائية؛ لكنها لا تصح في أمور الدين، فلقد قال يعقوب كما ورد في القرآن الكريم: **{إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}** (يوسف: 87).

والواقع أن الله كان بإمكانه أن يخلق البشر منزهين عن الخطأ مثل الملائكة؛ لكن على عكس أولئك الملائكة، مُنِح البشر إرادة حرة، بحيث يتمثل هدف وجودهم في العبودية لله والتعبد له **طواعية**، وفي التوبة إليه عند الخطأ.

لكن البعض يرى أن هذا غير كاف؛ إذ يرون أن الحياة يحوطها سعي حثيث وراء هدف أسمى للوجود، ودائمًا ما ينجذب هؤلاء الناس إلى الروحانية، فمن خلالها يشعرون أنهم حققوا وعيًا

---

[51] مسلم (1905)، والترمذي (2382)، والنسائي (3137).

روحيًّا فائقًا، وقربًا شديدًا من الله، وهنا نلاحظ مدخلًا آخر من مداخل **الشيطان**، فبعد أن انتهينا من مناقشة أول ذنب ارتكبه إبليس، لنتساءل الآن: ما هو أول ذنب اقترفه آدم؟ كلنا يعرف قصة أكل آدم من الشجرة التي حُرِّمَت ثمارها؛ لكن لماذا أَقدَم آدم على هذا الفعل؟ ماذا كان دافعه؟ إجابة ذلك في القرآن في سورة الأعراف بالآيتين 20 و21؛ حيث ينصح إبليسُ آدمَ فيهما قائلًا:

{مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}، وأقسم لهما قائلًا: **{إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}.**

وصدَّق آدم إبليس فيما قال، بالرغم من أن الله قد حذره منه آنفًا (فحين خاطب الله آدم، ألقى عليه سؤالًا تقريريًّا قائلًا: **{أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ}** (الأعراف: 22))، كل ذلك يمكن أن يكون مؤشرًا وجيهًا للمرء إلى العلم بأن من طبيعة البشر -منذ البدايات الأولى- أن التفكير المتعقل قد ينهزم أمام رغبه المرء في الارتقاء إلى مراتب روحانية سامية (كمرتبة الملائكة أو "مرتبة الخلود")، ولا يزال الشيطان يستغل نقطة الضعف هذه الكائنة في نفوس كثير من المسلمين، على نحو ما فعل مع آدم.

وذاك التحذير من إبليس مُوجَّه لكل المسلمين كما وُجِّه لآدم من قبل.

ومع ذلك، لم يزل هناك على مر الأزمان من يتوق إلى قضم تفاحة الروحانية والتأله، وقد أخذت الحماسة بعضهم حتى خرج عن الدين مُنزِلًا صفات الألوهية على أشياء من خلق الله، فلقد اتخذت طائفة من اليهود عُزيرًا ابنًا لله، ويؤمن كثير من النصارى بأن المسيح ابن الله، ومنهم من يراه شريكًا في الثالوث، ولقد رفع بعض غلاة الشيعة عليًّا إلى مقام الأُلوهية، وهناك أيضًا بعض الجماعات الكبرى التي انحرفت عن الشريعة اليهودية والمسيحية والإسلام بسبب تأثرها بالحركات الإصلاحية، والغنوصية، والصوفية على التوالي، على نحو ما بينَّا من قبل، وأما الحقيقة التي تتشاركها جميع هذه الاتجاهات في الديانات الإبراهيمية الثلاثة فتكمن في أن إبليس قد وَجَدَ خطة فاعلة للإضلال، ولا يزال ينفذها بلا توقف على مستوى أتباع هذه الأديان عبر العصور؛ فما عليه سوى أن يوسوس للمرء قائلًا: "آمِنْ بالروحانية واهْجُر الشريعة، آمن بالروحانية واهجر الشريعة؛ إني لك ناصح أمين".